

روايات مصرحة للحيث



50

في جانب النجوم

ما وراء الطبيعة



عدد خاص

و. أحمد خن الزوفيق

مقدمة

هذا هو الكتيب الخمسون ..

غريب أن يكتب المرء الكتيب الخمسين ، لكنها الحقيقة ..

وإننى لأتذكر أول يوم التقيت فيه بكم ، وكتبت أول سطر من قصتى الأولى : « أعقد أن الوقت قد حان كى أمسك القلم وأكتب عن .. » .. ومن يومها لم أترك القلم لحظة واحدة حتى اليوم ..

يومها بدا لى رقم الخمسين بعيداً جداً .. مرهقاً جداً .. ضرباً من الخيال العلمى .. حقاً كنت أومن جدياً أنني سأتوقف عند الكتيب الخمسين لو بلغتته .. وقد سبق أن قلت لكم إننى عدلت عن قرارى لسرى هذا الذى لم يعرفه إلا القليل من أصدقائى .. والسبب ؟ مازال لدى ما أقوله .. من العسير أن يخرس المرء لأنه قرر أن يخرس ..

هذا هو الكتيب الخمسون ..

حكيت لكم تسعاً وأربعين قصة ، اختلفت حولها الآراء ، فما راق لبعضكم أثار أعصاب البعض ، وما كرهه بعضكم

هام به البعض ، وما بدا للبعض مملأً بدا للبعض مثيراً
يحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة !
لكنى - وسط اختلاف الآراء - أعترف بأننى لم أحك
قصة إلا وأنا أعتقد ساعتها أنها جيدة .. ربما خاتنى
التقدير أو خاتنتى الموهبة أو خذلتنى القلم فى قصة
أو أخرى ، لكنى كنت دوماً صادقاً وأحببت كل قصة
حكيتها قبل أن أحكيها ..

ما هى أفضل قصصى ؟ لا أعرف .. أفضل قصصى لم
أكتبها بعد .. ومازلت أشعر بأننى هاو يجرب ويبحث عن
الأسلوب الأفضل .. حاو لم يبتكر أفضل حيله بعد .. لص
- لو سمحت لى بالتعبير - لم يضرب ضربة العمر بعد ..
لهذا أستمتر .. ولهذا أعجز عن التلغظ بكلمات
الوداع التى حسبت أن حينها قد حان ..

والآن دعونا من هذا الكلام ، ولنتحدث عن حلقة ليوم ..
هذه حلقة الرعب الخامسة .. تكور فى جانب النجوم
الذى تكلى منه المسوخ لتزيد الأمور سوءاً فى عالمنا ..
أنا أراها جيدة مثيرة فهل سترونها كذلك ؟
اقرأوا هذا الكلام من أوله لعل فيه الإجابة !

المسافر الذى لا يحب الأضواء

كانت ليلة طويلة ..

أضواء أضواء أضواء فى كل صوب .. وهدير
المحرك ، وفى المذياع أغنية لأم كلثوم من تلك الأغاني
التي تعلمها الكهرباء الاستاتيكية ، والنتيجة هي أنك
لا تميز حرفاً سوى همهمة طويلة تجعل عينيك
تتأقلان ..

كانت أم كلثوم قد كفت عن تقديم حفلها الشهري ،
وبالتالى صار مدمنها يفتشون عن صوتها فى
محطات المذياع ، كما يفتش البيض عن ماسة فى منجم
بجنوب إفريقيا .. وماكنت لأغلق المذياع ، فقد خطر
لى أن هذا الصوت هو الشيء الوحيد الذى يبقينى
مفتوح العينين ..

والحقيقة أننى كنت واحداً .. لم يعد شيء يستطيع إبقاء
عينى مفتوحتين إلا ما بقى لدى من إرادة حديدية ..
كنت فى مأزق ، وأعرف أننى فى مأزق .. إنهم

ينصحون المسائق فى مثل ظروفى أن يبحث عن أقرب
يمين ليتوقف على جانب الطريق ، ويغفو هناك حتى
ييقظ .. لكنهم واهمون ! من قال إن جانب الطريق هنا
أقل خطراً من القيادة النائمة ؟ وصوت (الست) يأتى
من بعيد : « أغانى ألقاء ؟ ياخوف فؤادى من غد .. »
أعرف أنها تقول هذا لأننى أعرف الأغنية من قبل فقط ..
أضواء .. أضواء على الطريق المظلم الممتد إلى
ما لا نهاية ..

أضواء .. أضواء فى مرآة الرؤية الخلفية .. وعيناي
تدمعان كأي قصير النظر ليلاً ..

كنت فى حاجة إلى النوم .. لم تستطع كل القهوة التي
ملأت بها جوفى فى الكافيتيريا أن تفعل شيئاً .. كل هذا
(الكافيين) حاول أن يبقى جفنى لأعلى وفشل ..

كنت فى حاجة إلى النووووم ..

* * *

أخيراً لم أجد بداً .. اتجهت بالسيارة إلى جانب الطريق

لترابى ، وأوقفتها وشغلت أضواء الانتظار المتقطعة ..
نظرت إلى الظلام الدامس بالخارج .. ظلام أولى بكر
لا يمكن أن تتبين معه يدك .. غمرت القشعريرة ظهري ،
وأغلقت الزجاج ما عدا فرجة للتنفس ، وأغلقت زر
التأمين ..

وأرحت رأسي على عجلة القيادة وفي نعاس عميق
غبت ..

كم من الوقت نمت ؟ لا أدري .. لكنني فتحت
عيني لسبب لا أعرفه .. ذلك الحافظ الخفى الذى يوقظنا
حين ينظر شخص بإمعان لوجوهنا ونحن نيام ..
وهذا معناه الأوحى أن لنا أكثر من عيني .. ثمة عين
لا تراها يختص بها وعينا ..

(بالمناسبة ليس ماسيتى بعد هذا حلمًا .. أعرف أن
القراء يحبون البحث عن لحظات النوم فى بدايات
القصص ، والتي ستفسر القصة كلها على أنها حلم
فيما بعد) ..

كان هناك من ينظر لى عبر زجاج النافذة المجاور لى ،
وكان يقرع الزجاج فى رفقى ..

كان رجلاً .. هذا ما استطعت إدراكه .. وكان أشيب
الشعر له سمت حزين كليب ..

برغم حذرى البالغ وإيمتى أن ما يحدث لى يختلف
دائمًا عما يحدث للآخرين ، فتحت زجاج النافذة ببطء
ليدخل البرد والصوت ، وسمعته يقول لى بنفس الصوت
الحزين الكليب :

- « هل لديك مشكلة ما ؟ »

هزرت رأسي أن لا ..

- « هل تأخذنى معك إلى (...) ؟ »

لم أستطع أن أقول لا .. يمكنك ببساطة أن تتجاهل
من يحاول الركوب عن طريق (الأوتوستوب) ، لكن
من المستحيل أن تتجاهل من يطلبها منك والعين قس
العين .. والرجل على كل حال واهن مسن لا يوحى
بأنه من (أهل ذلك) ..

سألته دون أن أفتح الباب :

- « من أين جئت ؟ »

- « من (...) .. لقد تعطلت سيارتي ولا بد من أن أجد ميكانيكياً في البلدة المجاورة .. »

لا بأس .. بالإضافة لكون هذه مهمة إنسانية ، أرى أنه سيكون عسيراً عليّ أن أقام في صحبة هذا ..

مددت يدي ، وفتحت له الباب الأيمن .. ثم أنرت المحرك بينما تربع هو على المقعد جوارى وهو يلهث .. قلل شيئاً عن جمال الدفاء .. أضأت المصباح الداخلى الواهن ، لكنه هتف بى أن أطفئه .. هو لا يحب الأضواء ولا يطيقها ..

لم يكن مخيفاً .. وقالت لى حاستى السلسلة الشهيرة به لا عجز عليه .. كأنها جهلٌ كشاف من الذى يوضع على مداخل الفنادق والمطارات .. دعه يمر .. ليس معه أسلحة .. ليس مذعوباً ولا مصاص دماء .. وبالتأكيد لم يمت منذ عامين ..

راحت السيارة تتحرك فى الظلام ، وقد طار التعاس من عيني بمعجزة ما ..

ونظرت لساعتي .. للثانية عشرة .. منتصف الليل .. لماذا فقدت صوابى ولم أنتظر حتى الصباح عند ذلك الصديق ؟ لكنى كنت فى أمس الحاجة إلى الذهاب إلى مدينة (...) .. لأن أعمالاً تنتظرنى هناك فى الصباح الباكر .. صباح باكر ؟ مستحيل أن أجد فى نفسى من القوة غذاً إلا ما يسمح لى بالنوم حتى الظهر ..

ومن جديد كانت (الست) تترنم :

- « آه ! كم أخشاه ! »

مما قال لى إبنى لم أتم أكثر من دقائق ما دامت الأغنية لم تنته بعد ..

وجوارى كان الرجل الذى يمقت الأضواء صامتاً كالقبر .. لكنه كان يتأملنى باهتمام وتركيز .. شعرت بهذا من طرف عيني ولم أرتج له كثيراً ، لكنى تجاهلته .. الجحيم هو نظرات الآخرين كما قال (سارتر) ، ونظرات للرجل جعلتني بحق شديد العصبية ..

في النهاية قلت له دون أن أحول نظري :

- « هل ثمة شيء ما ؟ هل تتساءل إن كنت أشبه شخصاً تعرفه ؟ »

ونظرت له ، لكنه كان ينظر خارج السيارة .. لنا أكره هذه الطريقة .. أكره هذا الإيحاء المخيف .. لنا متأكد من أن الرجل كان ينظر لى فمى أدار رأسه ؟ لكنى قلت لنفسى إنه فى الضوء الخافت يتساوى وضع لثلاثة أرباع الأمامى مع الخلفى .. أى أن ظلاله ستأخذ نفس المظهر سواء كان ينظر لى أم خارج النافذة .. وسمعتة يتساءل :

- « ماذا ؟ هل قلت شيئاً »

- « لا شيء .. اتص الأمر .. »

وواصلت القيادة والطريق يتلوى أملسى مظلماً كثيباً غريباً كالرجل الذى بجانبى بالضبط ..

كان كل شيء جميلاً وكانت الحياة رائعة .. لم أذكر هذا إلا حين شق أول لسان من البرق السماء .. شرخ عملاق فى القبة السماوية يتسلل لأسفل ويغرس مخالفه

فى الأرض .. ثم دوى الرعد لأتهم علموه فى حصص الفيزياء بالمدرسة ألا يسبق البرق أبداً ..

حجب الرجل عينيه وقال فى ضيق :

- « هذا برق .. »

لم أصارحه بتبهارى بعقريته الفذة فى فهم الظواهر الكونية ، وواصلت القيادة .. الجو متوتر يثير للقلق .. كل هذه الشحنات الاستاتيكية لم تذهب سدى .. بل أشعر بها فى كل خلاياى .. فى كل شعرة من رأسى ..

إن السيارة حصن آمن لكنه هش .. حصن يمكن أن ينقلب أو يتعطل أو تتلف عجلاته ، فلا تمك إلا للدعاء أن يظل متماسكاً حتى ينتهى هذا كله ..

وهنا قال الرجال أعرب شيء سمعته اليوم :

- « سأنزل هنا ! »

* * *

هنا ؟ ماذا هنا ؟

ونظرت خارج السيارة .. لا أرى إلا وادياً مترامى
الأطراف .. الظلام فى كل صوب .. بعض أعمدة الهاتف
أو الكهرياء تتناثر هنا أو هناك كأنسباح عملاقة، ومن
حين لآخر يلمع لسان آخر من البرق ..

سألته فى حيرة :

- « هل أنت متأكد مما نقول ؟ لا يوجد شيء هنا .. »

- « سأنزل هنا .. »

- « ألم تتعلم شيئاً فى المدرسة ؟ حين تحدث عاصفة
رعديّة وأنت فى السيارة لا تتركها .. لأن العجلات
تعزل جسم السيارة المعدنى عن الأرض .. ولو أنك
نزلت من هنا لأديت عملاً رائعاً كماتع صواعق،
يجتذب البرق من كل صوب ؟ »

- « سأنزل هنا .. »

- « هل غاضبتك فى شيء ؟ أنا لم أقل سوى .. »

- « سأنزل هنا من فضلك .. »

هنا فقط قررت أن هذا من حقه تماماً .. هذه هى
قواعد الحرية .. افعل ما تريد دون أن تتدخل فى حرية
الآخرين .. إنه رشيد عاقل ويمكنه اتخاذ قراراته
بنفسه ..

- « إذن افتح الباب وأغلقه وراعك لو سمحت .. »

لم يقل شيئاً ولم يوجه لى عبارة شكر واحدة .. فقط
فتح الباب وترجل ..

ومن جديد عدت أنظر للأفق الذى صار الآن بركة
من المياه ، وقد توقف البرق والرعد ، وساد الظلام
الدامس ..

ثم رأيت الضوء ..

هناك بيت .. كيف لم ألاحظ هذا من قبل ؟ المسافات
تخدع فى الظلام لكنى اعتقد أنه على بعد خمسين متراً ..
هل كان هناك طيلة الوقت ؟ هل كان هناك حين رحل
المسافر الغريب الذى لا يطبق الأضواء ؟

بيت صغير كما يبدو لى .. يصلح كى يكون مخزناً

للغلال .. لكنه هناك بين أعمدة الهاتف والكهرباء
المترامية .. ليس حوله شيء .. لاسيارات أماله .. لكن
الضوء معناه الحياة .. هناك أناس .. أناس ساهرون ..

تقولون لى ألا أذهب ؟ ماذا حدث لـ (حسن) حين
اتجه إلى أول بيت مضاء وجدته وسط الحقول ؟ لم
يعرف الأحمق أن هذا بيت الذئب ، ولرتكب لأحمق الأفعال
حين تعشى بطعام للذئب ونام فى فراشه .. والآن عاد
الذئب ليجد هذا الغريب نائما حيث لا يجب أن ينام ..

أنتم تمزحون .. ليست هذه قصة أطفال ، ولا يجب
أن يحدث لى شيء مفرع لمجرد أنني فى الموضوع ..
ثم إنكم لم تجربوا ما أنا فيه .. الملل والبرد والجوع
وتصلب الأطراف ..

أغلقت للسيارة بإحكام واتجهت نحو البيت ، وقدرت
أننى سأستطيع فيه العبث أو أطلب العون .. ربما
هناك هاتف ، وربما هناك طعام ..

* * *

خطوات بعد خطوات فى الظلام .. أنا أرى لنور لكننى
لا أرى ما تحت قدمى .. وتحت قدمى أوحال وماء ،
ولكننى حين رأيت الودى فى ضوء البرق منذ ساعت لم
أر حفرا .. هذا طمأننى قليلاً ..

تعثرت .. سقطت فى الوحل .. نهضت .. تعثرت ..
ممشيت ..

وأخيراً وصلت إلى البيت ..

كان بيتاً صغيراً بالقفل من طابق واحد ، وثمة ثلاث
درجات تقود إلى بلب بلا أية علامة تكل على ما خلفه ..
هناك نافذة جانبية هى التى رأيت منها الضوء ، لكن
لا يمكن اختلاس للنظر منها لأنها فوق مستوى النظر ..

قرعت الباب بكياسة ثلاث مرات ثم بعف ثلاثاً .. لأحد
يرد .. ثم فطنت إلى أنه موارب ، وإلى أنه يفتح ببطء
مع قرعتى .. كنت دائماً أكره المجانين الذين يجدون
الباب مفتوحاً ويدخلون ، لكن - كما قلت لكم - لم أكن
أعرف أن هذه قصة رعب ..

وهكذا وارتب الباب وزججت برأسى فى فتحة بجزر ..
وناديت أكثر من مرة ..

لا أحد .. لا شيء إلا مكتبة صغيرة معلقة على جدار
 رطب متشقق ، والغرفة مضاعة بذلك الضوء الغريب
 الذى جذب اهتمامى .. يبدو لى أنه ما من شيء إلا غرفة
 واحدة هى التى ألق فيها ، وثمة مدخل صغير جفتى ..
 مشيت إليه وأظلمت برأسى فى حذر فلم أرى إلا دورة مياه
 نظيفة جافة .. وقد سررتى هذا لأن ... أنتم تفهمون
 ما هذا ؟

كانت هناك مرآة فوق حوض الغسيل .. مرآة
 تساقط الكثير من طلاؤها المقضض ، لكنها سمحت
 لى برؤية وجهى المنهمك الذى جعله السهر والنوم
 المتقطع يزداد قبحًا .. وهنا ..
 ما هذا ؟

هل مر أحد فى المرآة من خلف ظهري ؟ فى
 الغرفة المضاعة التى كنت فيها ؟
 هذا وارد .. أنا لم أوصد الباب خلفى ..
 عدت مسرعًا إلى الغرفة فلم أجد أى واحد هناك ..



كانت بيتًا صغيرًا بالفعل من طابق واحد ، وثمة ثلاث درجات تقود إلى باب
 بلا أية علامة تدل على ما خلفه ..

هذا هذيان لا شك فيه .. أنا أعرف السهر الطويل ،
وأعرف كيف تبدأ القسط في الكلام ، والستائر في
الحركة التلقائية .. هذه أشياء تحدث ..

الآن فلتر المكتبة ..

لست من الأشخاص الذين يقاومون أن يروا مكتبة
ولا يعابثوا كتبها قليلاً ..

لكني - حين جررت الكتاب الأول - شعرت بألم في
إبهامي .. هذا دبوس .. دبوس صدئ يبرز من الجلد
كأنه كمين .. وقد نزف إصبعي بعض قطرات ، فأخرجت
المنديل ولففته به .. تباً ! ما هي أخبار الكزاز
(التيتانوس) هنا ؟ أنا لا أعرف تاريخ هذا المسمار
بالضبط ولا شك أنني سأعرف ..

الآن لتر هذه الكتب ..

لا لم تكن كتب سحر مصفرة متساقطة الأوراق
والحواف .. بل كانت مجرد أعداد تم تجليدها من مجلة
فنية كانت رائجة في الخمسينات .. حين كانت النساء
كلهن نسخة من (فاتن حمامة) أيام كانوا يسفدون

لها دوراً واحداً : البنيت المظلومة .. وحين كان
(عماد حمدي) هو النموذج الأوحى لفارس الأحلام ..

لا بأس .. لقد وجدت المألوف حتى للصباح ، ووجدت
التسلية .. دعك من الحمام طبعاً ، لأن هناك أنمات
يقرآن هذا الكلام .. ولكن أين أنام ؟ على الأرض طبعاً ..

وهكذا غرقت في القراءة .. وهكذا غرقت في النعاس ..

نمت ..

* * *

ماذا حدث لـ (حسن) حين اتجه إلى أول بيت مضاء
وجده وسط الحقول ؟ ولم يعرف الأحمق أن هذا بيت
الذئب ، ولرتكب لأحمق الأفعال حين تعشى بطعام الذئب
ونام في فراشه .. والآن عاد الذئب ليجد هذا الغريب
نائماً حيث لا يجب أن ينام ..

* * *

كان اللون الأزرق الغريب فى كل صوب .. لون
أزرق لا ينتمى لأية درجة أزرق تعرفها ، وفيما بعد
عرفت أن هذا لون (الإكلديس) .. لن أستبق الأحداث
ولكنى سأصفه بالك (إكلديس) من الآن فصاعداً ..

كنت راقدًا على منضدة طويلة .. أدركت هذا حين
شعرت بصلاية الخشب وقسوته على عظامى ..

وكان أناس من حولى .. ليسوا مجموعة من
الممرضات ولا الأطباء ولاحتى جامعى للقمامة .. كاتوا
يرتدون عباءات فضفاضة تغطى الوجوه .. تعرفون
بالطبع التأثير المخيف للعباءة التى تغطى الرأس ، وتجعل
الوجه فى الظلال بقعة من اللون الأسود الذى يستحيل
أن تتبين فيه أية ملامح ..

قلت لهم وأنا أتلوه :

- « أين أنا ؟ »

لم يفتح أحدهم فمه لكنى سمعت كلامهم ، وكان
عربية واضحة تتردد فى ذهنى كالأفكار :

- « لا تسأل أسئلة أيها الغريب .. »

- « من أنتم ؟ »

- « لا تسأل أسئلة أيها الغريب .. »

- « لماذا لا أسأل أسئلة ؟ »

- « لا تسأل أسئلة أيها الغريب .. »

ومن البداية كنت أعرف الحقيقة .. هؤلاء ليسوا
بشرًا .. الأمر يفوق علمى ، وحدود العالم المادى ..
أردت أم لم أرد أنا فى عالم من العوالم التى أضمن
دخولها ، وأجهل كل شيء عن الخروج منها ..

وقال أحدهم - أعنى فكر - وهو يفتح أزرار قميصى :

- « ليس مستعدًا بعد أيها الأخ (أبراكساس) .. »

فكر الآخر :

- « أنت تقول أيها الأخ (بلبيجور) .. »

- « مادام قد جاء فهو يصلح لنا ونحن نصلح له .. »

مادام قد جاء فقد انتخبته الأقدار .. »

ونظرت إلى يد الرجل الأول فأتار هلعى أنه ليست
فى أطراف أظفاره .. بل مخالبا سوداء قاسية ..
أما ما كان يحمله بالضبط فلم أتبين كنهه ، لكنه بدا لى
كقلب نابض ملوث بالدماء ! من أين جاء به ؟ من
صدرى ؟

لاداعى للخرف .. لاشيء كهذا يحدث وإلا ما كنت
لأرى أتامله هذه .. لكنى - برغم هذا كله - لم أجسر
على النظر إلى صدرى .. ماذا يحدث لو نظرت ووجدت
فتحة حمراء تنز منها الدماء ؟ بالتاكيد سيتوقف قلبى
فى يده هلعا !

ثم شعرت بالرجل يعيد شيئاً لى وأغلق أزرار القميص
اللى فتحها ، ثم فكر :

- « أرى أن ينتظر فى الإكلديس ، وسوف يتقرر
مصيره .. »

صحت بصوت عالٍ :

- « من أتبم وأين أنا ؟ »

عاد يفكر فى ذهنى :

- « لاتصال أسئلة أيها الغريب .. »

- « لماذا ؟ »

- « لأتلك فى جانب النجوم .. والقانون فى جانب
للنجوم لايسألون .. إتهم ينتظرون إرائتنا فحسب .. »
جانب النجوم ؟ هذا يعنى ؟

الأسطورة الرومانية القديمة عن للعالم المولزى الذى
يسكنه الشياطين والأشباح ومصاصو الدماء ، والذى
لربطه عدة ثغرات بالأرض .. من حين لآخر ينجح
أحد هؤلاء فى عبور الثغرة وينخل عالمنا .. عندها يعم
الهول ، وتغمر لدماء الأرض المعشبة .. بعدها يعود ،
ويحسب البشر فقط أنهم قتلوه ..

(رومتيا) هى أكثر بلدان الأرض ثراء بهذه الفتحات ..
ليس أقل من سبع فتحات موجودة بها كما تقول
الأسطورة .. بينما فى مصر فتحة واحدة على الأقل ..

كانت لى - تذكرون - قصتان دنوت فيهما من جانب
التجوم أكثر من اللازم .. مرة كدت أشهد قدوم (فلاذ
لوالاشى) إلى عالمنا ، ووقفت خلف الباب أصغى
لصرخات صديقى الروماتى (جوستاف) وهو يرى
جانب النجوم لأول مرة .. ولم أستطع بعدها أن أفهم
منه ما رآه حقاً ..

المرّة الثانية كانت حين واجهت بعض الضيوف
القادمين من هذا العالم ، وكاتوا مسئولين عن
الاستحواذ على الصغير (رامسى) .. فلم ينقذه
وينقذنى إلا حب أمه وتمسكها به ..

فى كل مرّة كنت أدرك أن هناك لغزاً مخيفاً يحيط
بجانب النجوم هذا .. هذا عالم لا يزوره المرء للسياحة ..
لا يتمنى أن يراه ولا يتمنى أن يرى أحداً منه .. فما
الذى وضعنى فى جانب النجوم بهذه البساطة ؟

* * *

قال الأخ (بلفيجور) لذى صرت أعرفه لأن الصوت
يأتى من جهته .. وإن كان ليس صوتاً .. لنقل إنه

انتطباع عام يقول إنه هو صاحب الفكرة التى تتردد
فى ذهنى :

- « خذوه إلى الإكلبيديس .. »

هذا كابوس .. بالتأكيد كابوس .. لأن الرجال الذين
دخلوا ليصحبونى لم تكن على أكتافهم رعوس .. كاتوا
يرتدون ثياباً تنكرك بثياب جنود العصور الوسطى ، لكن
لاخوذات لأنه لا رعوس .. وكان انتطباع أننى أخرف
هو ما أبقى عقلى سالمًا .. هذا كابوس جميل ستفكره
لهما بعد وأضحك كثيراً جداً .. لكم أسسر حين أصحو
فى فراشى الدافئ ، لأفكر أن أمسى أربع ساعات
أخرى من النوم قبل موعد العمل ..

الرجال يأخذوننى فى مزيج من الجر والنفخ إلى هذا
الإكلبيديس الذى لا أترى ما هو ...

نسيت أن أخبرك عن المكان .. لا مكان ! هذا حق
لامزاح فيه .. أنت تمشى على الأرض وتتحنس أشياء
لكلك لا ترى شيئاً .. فقط الكثير من الضوء الأزرق

الغامض ، والذي يطفو فيه من حولك طفوا .. ثمة
حيلة تلفزيونية قديمة اسمها (الكروما) يقومون فيها
بتصوير الممثلين فى عالم أزرق بالكامل ، ويتم مزج
لية خلفية على الصورة المنقطعة .. هكذا يحلق الممثلون
فى السماء أو يعيشون فى قاع المحيط .. أنا كنت
أمشى فى عالم من (الكروما) البكر بلا خلفيات من
أى نوع ..

إن لم يكن الطريق إلى الإكلديس طريقاً بالمعنى
المفهوم ، ولم يكن الإكلديس مكاناً لو كنت تفهم هذا ..
كان مساحة لانهاية لها من اللون الأزرق الذى
سأسميه هو الآخر (إكلديس) كما اتفقتنا ..
وأخيراً وقفت أنظر حولى فى غياب ..

أن ينتهى هذا للكايبوس ؟؟ لقد حان الوقت .. الكلبوس
الحقيقى هو ألا تصحو من الكايبوس ..

وهنا أبركت أن هناك مجموعة من الناس من حولى ..
أناس طبيعون لو كان لى أن أقول هذا .. فتتان .. لمرأة

فى منتصف العمر .. شايان أحدهما أقرب إلى سن
المراهقة .. شيخ ..

كلوا مثلى يقفون وسط اللون الأزرق الذى لانهاية له ،
وكانوا ينظرون لى فى دهشة .. ربما فى توجس ..
أدركت أنهم أجتب .. كلهم لا يحملون ملامح عربية ..
ثيابهم تتبلين بين القدم والجدة .. بين الغرابة والتقنيدية ..
بين الغدارة والنظافة ..

هذه المرة سألتهم بالإنجليزية وأنا أرتجف :

- « أين أنا ؟ »

قال العجوز بىجليزية لا بد أنها تحمل صبغة وثكنة
ألمانية :

- « أنت فى جانب النجوم .. »

- « قىل لى هذا مراراً لليوم .. لكنى لا أجد الإجابة
شافية أبداً .. »

قال وهو يجلس فى الفراغ الأزرق :

- « أنت من التصاء الذين عبروا الثغرة بالعكس ..
هذه ثغرات خلقت كي تعبر منها المسوخ إلى العالم
الأرضي ، ولم تخلق كي يعبرها الأرضيون إلى عالم
المسوخ ! »

صحت في غيظ وأنا أوثك على الإصابة بالفالج :

- « ما هذا الهراء ؟ أنا لم أفعل أي شيء .. كان هناك
ذلك البيت على الطريق وعاصفة الرعد .. والمكتبة ..
ثم نمت وبعدها ... »

ابتسم الرجل في مرارة وتبادل النظر مع الآخرين ،
ثم قال :

- « أنت اخترت مدخلا لتنام فيه في ليلة عاصفة ؟
ولعلك نزلت بعض قطرات الدم هناك ! هل فعلت هذا
عامداً ؟ إنها طريقة لا تخيب لعبور الثغرة ! »

كأنتى كنت أعرف أن هذه ثغرة .. وكأنتى أهوى
النوم في الثغرات التي يمر منها الشياطين ، على

سهيل التسلية بدلاً من لعب الشطرنج .. عدت أسأل
في غيظ :

- « ليكن .. وهل أنتم جميعاً أرضيون ؟ »

- « جميعنا .. وكنا ارتكب خطأ مشابهاً في وقت
لو آخر .. »

- « منذ متى أنتم هنا ؟ »

قالت إحدى الفتيات بتجلیزية أمريكية لاشك فيها :

- « أنا هنا منذ أشهر حسب تقاويم الأرض ! »

وقالت الأخرى بلكنة فرنسية من التي تحيل الراء
هنا :

- « وأنا هنا منذ قرنين حسب تقاويم الأرض ! »

هل هو سيرك ؟ أنا رأيت وعشت أغرب الأمور في
هياتي ، لكنى مازلت بحاجة إلى الكثير من الصودا
في أعضم كل هذا الذي أسمع .. ثمة شيء واحد أنا
وائق منه جيداً : هذا ليس كابوساً وإن بدا كذلك ..

- « ما زلت لا أفهم .. هلا أوضحت كلامك قليلاً ؟ »
قال بصوت هادئ وهو ينظر إلى سقف لانراه :
- « ستفهم حالاً حين يأتي السادة .. »

* * *

وبدأ السادة الذين تحدث عنهم يأتون من مكان ما ..
لم أتصور ما أراه ، ولا يستطيع أى خيال أن يرسم
صورة هؤلاء القادمين .. ربما رأيت أشياء مماثلة فى
أفلام المسوخ ، لكن هذا يقرب لك الصورة ولا يقى بها ..
أغرب مجموعة من العمالقة يمكن أن تتخيلها .. ليسوا
عمالقة من طراز (كينج كونج) ، لكن ارتفاع أغلبهم
حوالى أربعة أمتار .. وهى ضخامة مفزعة لأنها
ممكنة .. والوجوه تتباين بين من لاوجه له على
الإطلاق ، ومن لا رأس له على الإطلاق ، ومن يشبه
وجهه أخطبوطاً كاملاً بأرجله الثمانية ، ومن له عين
واحدة تنزف الدم بلا انقطاع ..

بعضهم كان لرأسه جزء خلفى طويل يتدلى على
الأرض كذيل التمساح ، وبعضهم كانت أوردته ترحف
كالأفاعى حوله باحثة عن فئص ما .. وبعضهم كان
له ست أترع ، وبعضهم كان بذراع واحدة فى منتصف
صدره .. وبعضهم كان له مكان الصدر رأس أسد يزار
بلا انقطاع .. أحدهم كان لطيف المنظر رقيقاً ، لهذا كان
جدعه كله عبارة عن رعوس متلاحمة تتلوى ألماً ..

لكنهم جميعاً كانوا يلبسون ما يذكر كيقطاعى القرون
الوسطى ، وكانوا مدججين بالسلاح - لأدرى ما قيمة
السلاح مع غيلان كهذه - وكانوا جميعاً يمشون على
قدمين مثلنا ..

الخلاصة .. أنت لن تتخيل المشهد .. وأنا كذلك لم
أتخيله ، وقد فتحت عيني على اتساعهما لكنى لم أستطع
أن أستوعب كل هذا الهول .. لهذا ببساطة قلت لنفسى :
إنه كلبوس وكل شىء ممكن فى الكوايبس .. لكنها كانت
أفزع مجموعة من العاهات يمكن أن تراها فى حياتك ،
وقد كنت أختلق من رائحة الكبريت والعطن المنتشرة
فى كل صوب ..

ورفع أقدامهم رأسه للمسقف وعوى ، فارتجت قلوبنا
فى الصدور ..

ورأيت هؤلاء القوم يجلسون إلى مائدة طويلة تشبه
حرف U اللاتينية - لا أرى متى وكيف ظهرت - بحيث
وجدنا أنفسنا فى الجزء المفتوح من الحرف .. الأمر
يشبه المحاكمة فعلاً .. لا جدال فى هذا ..

وفى سقف القاعة التى لمست قاعة راحت كائنات
مجنحة ضخمة تحلق كأنما تمنحنا السلام ! كائنات
لا أجد وصفاً لها إلا (الهلبى) فى الأساطير الإغريقية :
الطيور التى لها رءوس بشر ..

ودوى صوت ذهنى خشن من مكان ما يقول :

« أيها الفانون .. احتشدوا تحية لمادة جانب النجوم .. »

والقنين فى المنتصف .. ضئيلين جداً .. هشين جداً ..
خائفين جداً .. رحنا نستمع إلى الأسماء التى تجمد الدماء
فى العروق ..

« (سيجفريد الأמידى) .. حارق الأراضى ومجفف
الأنهار .. »

زام الأخ (سيجفريد) وراح دخان أسود كثيف
يتصاعد منه ، الأمر الذى جعلنى أظن أن هذه علامة
على الرضا عندهم .. أو ربما الخجل ، كما تحمر أذنك
حين يطريك أحدهم أكثر من اللازم ..

« (يوليان الفتصب) .. هادم القصور وذابح الأسرى
والأطفال .. »

ومن جديد زلزال الأمد الذى يخرج من صدر الرجل ،
وراحت العيون الجاحظة المتناثرة على ثيابه ترمش
بلا انقطاع .. أما هو فكان يلا رأس لهذا لم أر ملامح
وجهه .. أنتم تفهمون هذه الأمور طبعاً ..

« (نيفار الأشورى) .. الذى تتشاءم من اسمه أشباح
الليل ، وتنفث المقابر .. »

بالحا من ألقاب .. واضح أن كلاً من هؤلاء تعب كثيراً
جداً حتى استحق لقبه هذا ، وهو فخور به كما تفخر أنت
بطلب الطالب للمثالى الذى نلته فى أيام الدراسة بالكلية ..

.. (فلاد الوالاشى) .. هو الذى يمشى فى الظلام ..
والغائم الأبدى فى تابوت ..

هنا اقتشر جلدى .. حتى أنت هنا ؟ إنها لمناسبة
باسمة إذن ..

كان لكل فظاظمة من الآخرين إلى حد ما .. على الأقل
كان له مظهر آدمى نوعاً .. لكن عينيه كفتا جمرتين
حمرالوين تلمعان فى وجه لم تبقى منه رقعة جلد
بلاشعر أسود كثيف .. ذكرنى شكله بالمذعوبين كما
كنا نراهم فى أفلام الخمسينات المخيفة .. وعامة لم
يكن يشبه الكونت (دراكويلا) الذى عرفه العالم من
خلال السينما ، ولا يشبه صورة (فلاد) البشرى
للباقية فى قلعه بـ (ترانسلفانيا) .. لكنى أعرف الآن
أن هذا هو (دراكويلا) الحقيقى ، الذى كان دوماً
يلجج فى العبور إلى عالمنا متخذاً شكلاً شبه آدمى ..

ثمة سؤال هنا .. سؤال مهم جداً ..

* * *

كان (نيفار) هذا هو الأخ الذى يحمل فى مؤخرة رأسه
نيل تمساح هائل .. وقد راح النيل يضرب يميناً ويساراً ،
بينما الرجل يعوى كالذئب بلا انقطاع ..

هذه هى النهاية ! لقد انتهى أمرى .. لو كان هذا حقيقة
ملاية فأتنا قد انتهيت ، ولو كانت هلوسة فأتنا لن أسترد
عقلى ثانية .. لا توجد عقارات ولا صدمات كهربية تقدر
على إعادة عقل كهذا إلى حالته الطبيعية .. لا بد أن كل هذا
وهم ، وأنا الآن فى مستشفى الأمراض العقلية والكسرولة
على رأسى ، والممرضون يحيطون بهى ، بينما أنا لا أكف
عن العواء مثل الأخ (نيفار الأثورى) هذا ..
لكن جزءاً من عقلى ظل يقول إننى لم أجن ..

يقول إن هذا حقيقى .. وإننى ما زلت محتفظاً بقدرتى
على الملاحظة والاستنتاج .. لقد لاحظت لحية (نيفار)
العلاقة المجنولة وفهمت من هذا السبب الذى جعلهم
يلقبونه بالأثورى .. لاحظت الألقاب التى يستعملونها
وفهمت أنها شبيهة بألقاب فرسان القرون الوسطى ..

« سيبحث (فلاذ الوالاشى) عن ثغرة ما يعبر من خلالها .. ولمسوف ينجح حتماً .. ويومها ستكون أنت أول رأس يقطعه .. فهو يعلم الآن أنك من أغلق بوابته ! »
د. (لوسيفر) فى (اسطورة دماء دراكيولا) صفحة 137

* * *

أنترنى (لوسيفر) بهذا يوماً أنا لكنى لم أهتم كثيراً .. بدالى هذا بعيداً جداً وسخيف جداً بمنطق (يامين يعيش ؟) .. لكنى الآن أرى (فلاذ) شخصياً أمامى ، فهل يعرف من أنا ؟ هل يذكرنى ؟
حتى لو كان اسمى لم يذكر ، فمن الوارد أن هذا العالم لا ينتظر البطاقات الشخصية كى يعرف من أنت .. ربما هو يقرأ أفكارى الآن فهل عرفنى ؟ ولو كان عرفنى لماذا لم يطير عنقى بمخالبه بعد ؟

لا أعتقد أننى سأجوز من هذا الموقف بالذات .. هناك حدود للأمل البشرى يجب أن يكف المرء بعدها عن تمنى الحظ الحسن .. لقد نجوت كثيراً جداً من مواقف سيئة .. هناك نقطة للتوقف بالتأكد ..

على حين استمر الترحيب بالموجودين ..

« (روكيان الأماسى) .. أكل قلوب الأطفال النابضة ..
الوطواط الأزرق .. »

وهكذا توالت الأسماء حتى اختلطت فى ذهنى .. لكنى على الأكل أنكر أنه كان هناك نحو عشرة من هؤلاء .. يبدو لى أن (سيجفريد الأמידى) كان أهمهم وأضخمهم وأشرسهم .. كان الشر جلياً فى كل حركة وكل كلمة من كلمته ، وأنا لم أعتد أن أقابل الشر الخلم بهذا الوضوح .. نحن تلقى الشر المستتر .. لشر اللعوب .. لشر التناعم .. لكننا لانلقى أبداً الشر الحقيقى حين (يأخذ راحته) ولا يتهيب قوة المجتمع وتقاليده .. الشر اللفظ الأولى الذى يتمدد ولا توقفه جوانب الإماء ..

لما انتهى (التمام) ، تكلم (سيجفريد الأמידى) بذلك الصوت الفكرى ، الذى يجعل مخك ذاته يغشى بالقبح وكان شيئاً ما سيخرج من أفنك .. شيئاً مقبلاً كريهاً مفرزاً :

« اجتمعنا نحن سادة جانب النجوم اليوم كي
نقرر مصير الفاتين الذين عبروا الثغرات إلينا .. بينما
نحن السادة خلاقات وبيننا حروب .. لكننا في وجه
الفاتين جسد واحد يضرب لتسيل الدماء ! »

ما شاء الله ؟ هذه بداية الكلام فماذا عن نهايته ؟

واصل الشيء المفزع الكلام :

« جاءوا هنا لأن أقدارهم شاعت أن يجبنوا ..
وهم في هذا تورطوا في حبال الحظ العاثر ، ونسوا
جانب النجوم الذي هو محرابنا .. وإن أبقينا عليهم
حتى الآن فلأننا نعرف أنهم لم يأتوا إلا لحكمة .. »

هنا تدخل (روكيان الأماسي) والوجوه المتناثرة
على صدره وجسده تعوى بالصراخ ، وحاول أحدها
الفرار من مكانه فأعادته إلى مكانه بمخالبه :

« أرى أيها الأמידى أنهم يصلحون لي .. لقد
لكونت خلاياي من خلاياهم ، وعظامي من عظامهم .. »



قال وهو يتلمظ :

- « إن نختار أشرهم .. وهذا الذى نختاره سوف يغو منا .. تمنحه القلعة والخدم والحياة ، ويغدو من سادة جانب النجوم ، وسوف أمنحه بذرة الفامفيرى كى يعيش من شرب الدماء ، ويغدو (غير ميت) .. »
وخرج لساته المشقوق يتلوى فى الهواء ، وعلى طرف اللسان لمحت الندوة الصغيرة .. هذه الندوة التى سأعرف يوماً ما أنها بذرة الفامفيرى ، وهى التى بدأت منها شرور مصاصى الدماء على الأرض ..

هنا قال (سيجفريد الأميدى) بصوته المخيف بطيء
الذرات :

- « أيها القانون .. سمعتم كلمتنا .. فليعلمن كل منكم أن منجاته فيما اقتترف .. فليحك كل أئامه
ولسوف نصغى وتتخذ قرارنا .. واحد منكم سينجو
أما الآخرون فسوف يصيرون جزءاً من جسد

فى كل جزء من جسدى يوجد فإن انتهى أمره
إلى أن يكون منى .. فأعطوهم لى ياسادة جانب
النجوم .. »

اشتعلت النيران الزرقاء فى رأس من عرفت أنه
(هيفايستوس الجبال) وقال وهو يرتجف :

- « إنها الحقيقة إنن .. أحدهم منا وجدير
بأن يبقى معنا .. الآخرون لك يا (روكيان
الأماسى) .. »

- « إن هو أشرهم .. أكثرهم غلظة وأقساهم قلباً
وأوفرهم سفكاً للدماء .. »

هنا فقط تدخل الأخ (فلا والاشى) ، وكنت أشعر
نحوه بنوع من الألفة على الأقل لأنه أقربهم إلى الشكل
البشرى .. كما قلت هو أقرب إلى المذعوبين كما تصورهم
أفلام الرعب القديمة .. وهو فى هذا ملك جمال بالنسبة
للآخرين ..

(روكيان الأمامسى) .. وهى نهاية أفضل منها الموت
بأثياب ألف ذنب .. «

قلت لنفسى : إتنى نجوت من أسوأ مواقف حياتى
ببعض اللباقة والتهديب .. ربما استطعت أن أخرج من
هذا الموقف السخيف لو كنت واضحاً صريحاً .. لهذا
تقدمت إلى الأمام وقلت بتحضر :

- « سيدى .. أنا غير راغب فى دخول هذه المسابقة ..
أعتقد أننى جئت هنا بطريق الخط ... »

ولم أدر متى ولا كيف طرت فى الهواء الأزرق ثم
هويت على الأرض مقلوباً وكل عظمة من عظامى
مهشمة أو توشك على ذلك وسمعت صرخة غاضبة
حازمة فى ذهنى :

« اخرس أيها الفانى !! »

بينما كنت أنا أكمل ما قلت فى ذهنى :

- « .. طأ .. لم أفترف من الشر ما يبرر
وجودى هنا .. وعلى كلِّ ليس البقاء حياً بينكم
بمطلب لى .. »

تقدم لعجوز خطوة إلى الأمام ، وقال بلهجة الأماقية
وبصوت راجف من رعب الموقف :

- « لو سمح لى سادة جاتب النجوم .. إن اسمى
(فيرنز فرايمان) .. وأنا أكثر هؤلاء للفاتين شراً
ويمكننى أن أبرهن على هذا .. »

- « لبدأ لسرد أيها الفتى .. ولتعلم أن الكذب خطيئتنا
المفضلة ، لكنها لاتمنحك فرصة لتجاة .. لا أحد يكذب
على سادة جاتب النجوم .. »

- « لن أكذب ياسيدى .. لن أكذب .. »

وهكذا بدأت حلقة الرعب الخامسة .. بدأت فى
أغرب مكان يخطر لك ، ومع أغرب مجموعة من

المسوخ يمكن تخيلها .. فماذا قيل فيها وماذا حدث؟

أعبروني آذانكم الفاتية ليها الأرضيون واسمعوا ..

* * *

الإعتراف الأول

من شفتي (فيرنر فرايمان)

شيء من الألم

قال (فيرنر فرايمان) الذي عرفت أنه العجوز :
- « لم أرد أن أفعل ذلك .. لكنه حدث كأي شيء
آخر في حياتنا .. »

* * *

أنا جراح .. لا بد أن سادة جانب النجوم عرفوا هذا
وإن لم يعد بوسع أحد من الأرضيين أن يثبته .. لماذا؟
لماذا أتكر أنني طبيب، وأنتى مارست هذه المهنة
الشريفة التى يجلها الجميع ؟

السبب هو أننى كنت أعمل مع (يوسف منجيل) (١) ..
وأنتى كنت جراحاً فى (أوشفيتز) ..
هل فهمتم السبب الآن ؟

* * *

(*) يوسف منجيل شخصية حقيقية طبعاً ..

كنت من البداية عضواً فى الحزب النازى .. كنت من
القاتل الذين قرعوا كتاب (كفلحى) لـ (هتلر) ودرسوه
بغاية فائقة .. إن للتسخة التى عندى مهترفة امتلأت
بالخطوط والحواشى ، وقد شربتها شرباً والتهمتھا
التهاماً ، وأيقنت أن الجنس الآرى يفوق الجميع ،
وعليه أن يسحق الجميع من أجل رفعة وعظمته ..

ولما بدأت الحرب ، وبخلت جيوش الفوهرر (بولندا) ،
لم يكن لى دور مهم فى الحرب بسبب ضعف بصرى
وشيوختى .. ولهذا التحقت بالخدمات الطبية لأننى
كنت طبيباً كما قلت ..

ونقرر أن أكون فى معتقل (أوشفيتز) فى (بولندا) ،
وكان يديره فى ذلك الوقت (هيس) قبل أن يسقط
- (هيس) نفسه - فى أيدى البريطانيين .. وعرفت
لها بعد أنه قضى بقية حياته فى السجن حتى مات ..

إن (أوشفيتز) هو اسم المعتقل الذى بناه (هملر) عام
1940 فى المدينة التى تحمل الاسم ذاته فى (بولندا) ..
على ضفة نهر (فيسستولا) .. وكان (هملر) هو رئيس

جهازين مرعبين لم يتسهما العالم منذ الحرب : هما قوات العاصفة SS والجستابو (البوليس السرى النازى) ..

وقد قدر لهذا الاسم - (أوشفيتز) - أن يرتبط بكل فظائع النازى .. وأن يصير كابوساً للأوروبيين عدة عقود .. ومن المؤكد أن نحو أربعة ملايين شخص هلكوا هناك .. منهم اليهود والسوفييت والعجبر ..

فيما بعد حاول اليهود أن يبتزوا أوروبا ، وادعدوا أن ستة ملايين منهم متوا فى (أوشفيتز) وكان لتثريته لم يكن لها من هدف سوى إبادة اليهود ، لكنى أؤكد لكم أن عدد السوفييت الذين هلكوا فى (أوشفيتز) يفوق بمراحل عدد اليهود .. فقط برع اليهود فى الدعاية وملنوا الدنيا بكلامهم عن المحرقة ، التى كلفهم الله بعدها بأرض إسرائيل .. بينما لعب السوفييت دور العدو التقليدى للغرب ، وكان الكلام عن معاناتهم فى الحرب جريمة أية جريمة ..

بعيداً عن هراء اليهود المعتاد ، أقول إن السجناء كانوا يصلون إلى (أوشفيتز) بالقطار فى ثلاث مجموعات :

مجموعة تعد للإعدام فوراً فى (بيركناو) .. فيما بعد زعم اليهود أن (بيركناو) كان يحوى غرف الغاز (زيكلون - ب) والمحارق .. الأفران الآدمية حيث يتم إحراق 200 ألف سجين يومياً .. وأنا لا أدرى من أين أتى هؤلاء القوم بهذه الأعداد الضخمة ..

هذا ببساطة ليس صحيحاً .. كنا نطلق الرصاص على من نعدمهم ، كما يفعل أى واحد آخر .. لم تتم تجربة (زيكلون - ب) فى (أوشفيتز) .. هذه حقيقة مؤكدة لكن الإعلام اليهودى لن يسمح بإذاعتها أبداً ..

مجموعة أخرى من السجناء كانت تعمل سخرة فى مصانع (فارين) و(كروپ) .. وكانت هذه عمالة رخيصة بلغت فى فترة من الفترات نصف مليون عامل لم يكفوا الدولة سوى طعامهم القليل .. ومن الواضح أن هؤلاء أيضاً كانوا يعدمون أحياناً أو يموتون جوعاً ..

لمجموعة لثالثة وهى المهمة هنا كان يكلف برعايتها

الأطباء ، وكان رئيس الأطباء هو (يوسف منجيل)
وبالطبع كنت أنا أعمل معه وقتها ..

* * *

ما كان عمل الطبيب في (أوشفيتز) هو العلاج
ولا الشفاء .. بل كان البحث العلمي ..

وكان البحث العلمي من نوع خاص جداً .. كما
سترون بعد قليل ..

في البداية اصطحبني (منجيل) إلى العنابر حيث كان
هناك عدد أكثر من اللازم من الحراس النازيين ، وكان
رجال العاصفة في كل مكان .. وأنا نازي متعصب
لكني أعترف لك أنني ما زلت أخشى رجال العاصفة
هؤلاء .. بتعصبهم المجنون وقسوتهم ، ونظرتهم
إلى الغير نظرة احتقار متعال لا ينظر بها المرء إلى
صرصور ..

رحنا تمشى بين الأمرة ، وأثر ذهولي لأن كل مريض

مكبل بأصفاد حديدية إلى سريره ، وأن في عينيه
نظرة دعر تثير الهلع في القلوب .. كانوا في صحة
سليمة .. الشحوب هو القاعدة ، والعيون غائرة في
محاجرها ، والجلود على العظام ..

سألته وأنا أبتلع ربيقي :

- « ما هي مهمتنا هنا بالضبط ؟ »

قال (منجيل) وهو يربت على سلسلة في قفم أحد
المرضى :

- « هل تتفق معي على أن كل من ليس آرياً هو
حيوان ؟ »

هزرت رأسي مقتنعاً ، فقال :

- « والأطباء يجرون تجاربهم على حيوانات .. من
أجل المزيد من المعرفة للبشرية .. »

كنت قد سمعت شيئاً كهذا فلم أندعش .. سألته
لفظ :

- « وما نوع هذه التجارب ؟ »

- « كل شيء وأى شيء .. كل ما كنت تتمنى أن تجربته على بشر ولم تجسر على ذلك قط .. نحن نجرى تجارب على الجهاز العصبى والقلب والرتنين .. نملأ المثانات بالماء ونحدد درجات الألم .. نغرس إبراً فى التخاع الشوكى ونقيس الاستجابة الكهربائية .. كل شيء .. فقط يجب أن تكون خلأفاً .. »

بدا لى المستقبل بهيجاً إلى حد لا يوصف .. وهنا يجب أن أقول إبنى لست سادياً بشكل خاص .. ليس للنازيون مجموعة من المرضى النفسيين كما يصورونهم .. لكن التمييز العنصرى والإحساس بالتفوق العرقى هما اسم اللعبة .. ما إن تشعر أنك خلق خاص فريد من نوعه ، حتى يصير الآخرون حشرات لا أكثر ، وتبدأ المذابح .. ما من مذبح شهيرة يمكن أن تقرأ عنها فى كتب التاريخ إلا ووراءها تمييز عنصرى ما .. من دون تمييز عنصرى يمكنك أن تنظر

للآخرين على أنهم بشر مثلك ، لهم الحق فى الحياة والأمان والسعادة ، وعندها يصعب عليك إذاؤهم .. أنا لست وحشاً .. أنا نازى يؤمن بنازيته .. لا أكثر ولا أقل ..

وهكذا عكفت على كتب الفسيولوجيا التى وضع الألمان أكثر دقائقتها ، ورحت أبحث عن شيء يصلح لتجربته .. بينما كنت أنهمك طيلة اليوم فى التجارب التى يجريها فريق (منجيل) على التوائم ..

كلوا يحبسون التوعمين - وهما من السوفيت غلباً - منفصلين عن بعضهما .. ويبدعون فى تعذيب واحد منهما مع ملاحظة ردود فعل الآخر .. وكانت النتيجة باهرة دائماً .. هناك خيط لاشعورى يربط بين الجهتين العصبيتين للتوعمين فقط إذا تجاوز الألم حدوده .. أما الألم العادى المحتمل مثل وخز الإبرة فكان يمر من الكرام ..

وفى يوم وجدت شيئاً يصلح كى أجره ..
لكنى - برغم أننى لا أعجأ بهذه الأمور - شعرت
بالهلع مما توصلت إليه ..

كانت فكرة رهيبة بحق لا تخطر إلا ببال شيطان ..

* * *

كانت هناك كذلك وحدة مختصة (بعلاج) الحوامل ..
كنا نقسم الحوامل إلى عدة مجموعات نعطي كل مجموعة
منها عقاراً بعينه .. وبجرعات محسوبة ، وفى النهاية
نراقب ما تتجبه ونحدد بالضبط الناتج .. وهكذا استطعنا
أن نحدد أكثر العقارات خطراً كى تتلافها المرأة الآرية
فى أثناء حملها .. وما كان أحدنا ليسمح بأن يخرج إلى
الوجود طفل أرى مشوه ..

هكذا ترون أننا كنا نوفر الكثير من الوقت ، ولانضيقه
مع الفئران والأرانب كما يفعل الطماء الإنجليز
والبريطانيون .. وفى كل مرة يقولون فى نشرات
النواء إنهم جربوا النواء على الفئران ، لكنهم
لا يضمنون نتائجهم مع الحوامل والمرضعات ..

نحن كنا نعرف .. ونعرف بالتأكيد ..

وكنتم فى هذه الأثناء أوصل أبحاثى .. أبحث عن
بحث جديد كما يقولون !

كنت قد قرأت عن تجارب العلماء الفرنسيين أثناء الثورة الفرنسية ، حين كانت المقصلة تقدم الرعوس بلا عدد .. كانوا يوصلون الرأس المقطوع بمجموعة من الأبابيب تمنحه دورة دموية صناعية ، وكان - كما قيل - الرأس يتحرك ، ويحاول الكلام ، وتتحرك عيناه لمدة ساعات بعد الإعدام ..

وكنت جراحاً أملك الموهبة ، ولى إمام لا بأس به بتشريح الرأس .. إن هناك بعض المشاكل مع الأوعية لكن هذه يمكن إزالتها ، خاصة وأن لدى المجال الكافي للتجارب ..

وعرضت على أستاذي المجنون بروتوكول الدراسة فأقرها .. كانت المشكلة هي أننا سنحتاج إلى إعدام بعض الأسرى ، لكن هذه لم تكن مشكلة على الإطلاق في (أوشفيتز) ..

وفي ليوم الموعد كنت أرتجف حماسة ، بينما انتقد الجنود رجلين إلى الأرض الخلاء خلف المصكر .. الأرض التي علفت عليها لاشنة بالألمانية تقول : « فقط العمل يجعل الإنسان حراً ! » .. وكانت تتناقض بشكل مضحك مع حقيقة ما يحدث هنا .. وسألت أستاذي للمرة الأخيرة :

- « هل أنت متأكد من أن الهر (هملر) سيوافق على ؟ »

قال في استهتار وهو يهز كتفيه :

- « لا مشاكل هناك .. إن لدى تفويضاً كاملاً بعمل ما يروق لي ، مادمت سأقدم بهذا تقريراً طبياً وافياً .. »

ودخلت غرفة الجراحة مع اثنين من الأطباء ، وشرعنا نتأهب للتعقيم ، بينما جاعوا بسجين سوفيتي لا يكف عن الصراخ والاستغلة .. قيده على المنضدة بينما شرع طبيب التخدير بعد عقاقيره ..

كان السجين يفهم بعض الألمانية ، وقد قال لي :

- « أتوسل إليكم أن ترموني بالرصاص ! لا أريد أن أكون حيوان تجارب لكم ! »

قلت له في برود وأنا ألبس القفازين :

- « هل تعرف ما نحن بصدده ؟ »

- « أعرف أنكم مجانين !! وهذا كاف .. »

لم أحفل بالرد عليه ، وأشرت إلى طبيب التخدير كي يحقنه بالمنوم ، وسرعان ما غرق الرجل في سبات عميق ..

وعاد الحراس من الخارج مسرعين يحملون الرأس الذي قطعه ، مقوساً في محلول ملحي طبيعي .. كان رأساً أسمر له شارب كث يبدو أنه لسجين غجري ..

وعلى الفور رحلت أشق الأنسجة بمبضعي ، وأظهرت الشرايين والأوردة الحيوية في هذا القطاع ، ثم ببراعة رحلت أجرى الخياطات اللازمة ..

وقل طبيب التخدير وعيانه على البالون الأسود الكبير :

- « حذار ! إن ضغطه ينخفض بسرعة .. »

- « إذن احرص على ألا يحدث هذا .. »

وواصلت العمل كالمجنون .. لكن كان لابد من أن تمر ثلاث ساعات من الجهد المتواصل .. وفي النهاية تراجع للوراء ومسحت العرق عن جبهتي ، وأمرت مساعدي الشاب أن يقطب الجروح في الجلد ، وعدت أنظر لطبيب التخدير :

- « كيف الحال ؟ »

- « مات طبيعاً .. كلاهما مات ! »

نظرت لمساعدتي وللمريض ولطبيب التخدير ، ثم أصابني هياج بلغ جعلني أركل حامل المحلول فأسقطه أرضاً .. كل هذا الجهد بلا طائل ! أي ظلم !

سمع (منجيل) صياحي من الخارج ، فجاء إلى الداخل وربت على كتفي مواسياً ، وقال :

- « لا تتهور ! مازالت أمامك فرص للنجاح .. »

وجاءت التجربة السادسة .. هذه المرة كانت الضحية امرأة عجبية ، وكان الرأس رأس تاجر يهودى ضئيل الجسد .. وقد استمرت الجراحة ساعتين ، لأن خيبرتى بها كانت عظيمة ، وانتهيت فألقيت القفازين ونظرت إلى طبيب التخدير منتظراً إعلان الوفاة كالعادة ، لكنه قال فى دهشة :

- « العلامات الحيوية ممتازة ! يبدو أنهما سينجوان ! »

وكان هذا غريباً .. لقد اعتدت الفشل حتى صار للنجاح مذاق غريب شاذ كأنه نور المصباح لعينين اعتادنا الظلام دهوراً ..

وفى المساء ذهبت لزيارة (مريضتى) فوجدتها على ما يرام ..

لقد قمت - أنا (فرنر فرايمان) العظيم - بزرع رأس رجل فى عنق امرأة .. وكلاهما يعمل بمرىء واحد وقصبة هوائية واحدة ودورة دموية واحدة .. طبعا ما زالت

لا أحد ينجح من أول مرة إلا الحمقى الذين يرفق بهم الحظ ! ستجج يا (فرايمان) .. ستجج ! »
ثم أشار إلى أحد الحراس :

- « خذوا الجثتين إلى الفرن الكبير ، وتيقن من حرقهما بغاية .. وتيقن كذلك من أنه لا شهود عليك ! »

لم أر داعياً لهذا الحرص ، لكن الرجل كان حذراً وكان يتحسب برغم كل شيء لخطر أن يربح الحلفاء الحرب .. إن قتل الأسرى ليست تهمة محببة للنفس وقتها .. وكانت هذه عامة سياسته مع كل موضوعات التجارب .. الفاشلة منها والناجحة .. إن فشل التجارب يعنى وجود جنث .. ونجاحها يعنى وجود شهود !

وفى الحاليتين تصلح النار لإخفاء كل شيء !

* * *

وكررنا العملية أكثر من مرة فى الأسابيع التالية .. كان الفشل يلاحقتى بإصرار غريب .. وإن كنت فى سرى أعترف أن هؤلاء الذين هلكوا كانوا مجدودى الحظ حقاً ..

كانت المرأة تردد عبارات بلقعتها الغجرية كلما رأنتى ،
ولم أفهم ما تقول لكنى أدركت أنه نوع من السباب ..
أما الرجل فكان يبكى كثيراً جداً .. وقد اعتاد أن ينام
على كتفها لأن وضعه الجانبي لا يسمح له بأى وضع
آخر ، وأعتقد أنها كانت تشفق عليه لأنها كانت تضع
كوب الماء أمام شفتيه ، وتطعمه من حين لآخر .. إنه
تحت رحمته لأنه بلا جسد على الإطلاق .. وأعتقد كذلك
فهما كانت تخشى أن يموت .. لأحد يحب أن يموت جزء
من جسده الخالص .. ولو حدث هذا لتصرفنا كما يتصرف
الجراح عند حدوث غنغرينا فى الجسد .. كنا سنستأصل
الرأس كى تعيش المرأة .. لكن أحسبنا ما كنا لنتجشم
هذه المشقة ..

إن أهمية هذين لا تخرج عن كونهما أعجوبة ..
وصاحب السيرك لا يترك سبيلاً للعناية بتملأجه النادرة
لأنها مصدر فخره .. كنت أمضى الساعات أراقبهما
وأدرس سلوكهما ، وألتقط عشرات الصور ..

كنت أنا الآن للتجم للمتوج وسط أطباء (أوشفيتز) ،

الجراحة حرجة ، وما زالت المرأة عاجزة عن البلع
وتتنفس بصعوبة بالغة ، لكنى رحمت أمل أن يلتئم
الجرح مع الأيام القادمة ..

وكانت الأيام التالية بالفعل تفوق أكثر أحلامي
جموحاً ..

لقد بدأت الجراح تشفى .. وتوافد القوم ليروا
هذه المعجزة ، والتقطنا الكثير من الصور .. بينما
المرأة المسكينة لا تصدق ولا تفهم ، ورأس اليهودى
المتلى على كتفها ينظر لنا فى حيرة وغباء ..

هذه الجراحة نجحت من قبل مع الكلاب ، لكنها المرة
الأولى التى تجرى فيها وتنجح مع البشر .

كان المشهد مريعاً لكنى كنت فخوراً به .. وكنت
أطرب حين يأكل كلاهما من طبق واحد .. أو يتبادلان
بعض العبارات بلغة (الينديش) التى يتكلمها اليهود ..
لقد ارتبط مصيرهما للأبد ، وهو نوع غريب حقاً من
الزواج ..

وجاءتني تهنئة موقعة من (هملر) ملائني فخراً
وتبها، وقررت أن أجرى هذه التجربة على نطاق
أوسع .. لربما تمكنت بشيء من البراعة والحظ من
زرع ثلاث رعوس أو أكثر .. لم لا ؟

وهكذا اجتمعنا في مكتب المدير، وطرحت عليه
المقترحاتي، بينما دارت الأخاب وغينا (ألمانيا فوق
الجميع)، لكن (منجيل) اتحنى بي جانباً وقال لي:

- « لا أريد أن أثير توترك .. لكنني أريد أن تحرق
كل شيء يختص بهذه التجربة .. »
صحت محتجاً:

- « أوه .. لن نعود إلى هذا .. »

- « الأمر لا مزاح فيه .. إن السوفييت قادمون ..
لكن الواضح أن بولندا ستطير من قبضة الرايخ !! »
كان هذا أسوأ خبر سمعته في حياتي ..

بعض هذا ببساطة أن كل ما قمت به هنا سيضيع ..



وقد اعتاد أن ينام على كتفها لأن وضعه الجانبى لا يسمح له بأى

طبعاً في ظروف كهذه بدا أن الجميع لا يعبأ بي ..
فلينج كل بنفسه .. وليتحمل كل مسئولياته الخاصة ،
وعرفت أن الوقت قد حان حين تبخر (منجيل) نفسه
في الصباح ، ولم يعرف أحد إلى أين ذهب ..
هكذا اتخذت قرارى ..

هكذا اتجهت إلى غرفتى فحرقته ككل أوراقى
والصور ..

بقى شيء واحد فقط على أن أتخلص من آثاره ..
بحثت عن الكيروسين ، ووجدت عود ثقاب مستعداً
للعمل ، واتجهت أنا واثنان من رجال العاصفة إلى
المطبخ الخاص الذى احتفظنا فيه بالمسوخ إياه ..

بعد دقائق كانت السنة للهب تتعالى ، وكان الدخان
الأسود يتصاعد إلى عنان السماء ، وكنت أنا فى
طريقي للهرب ..

* * *

- « بل أسوأ من هذا .. » - قال (منجيل) - « لسوف
يعاملوننا كمجرمى حرب يوم نقع فى أيديهم .. »
- « نحن لسنا مجرمى حرب .. نحن علماء ! »
- « قل لهم هذا وهم يستخرجون بقايا مواطنيهم
من حفر الموت الجماعى .. »
اعتصرت كأسى فى عصبية ، وقلت :
- « والعمل ؟ هل لديك خطة محددة ؟ »
- « لقد أعددت العدة للفرار .. »
قالها وابتعد مما قضى على أى اعتقاد ساذج لدى
أنه يلهو بي ..

ووجدت نفسى فى مأزق .. لو جاء السوفييت ووجدوا
هذا المسوخ الذى أنتجته تجاربي فما المصير ؟ لن
يكون أقل سوءاً من مصير هذا المسوخ .. وفى
اليومين التاليين أدركت أن (أوشفيتز) بالفعل يشهد
عملية إخلاء واسعة النطاق ، وتم تحميل آلاف
الأسرى إلى القطارات متجهين إلى ألمانيا ذاتها ..

ما إن انطلقت بسيارتى الجيب مبتعداً عن المصكر
حتى راحت الطلقات تنهمر على السيارة .. حقاً لم
أدرك من قبل كم أن السوفييت قرييون .. ولم أدرك
من قبل كم هم بارعون فى التصويب ..

كنت أنزف من ساقى .. ثمة طلقة اخترقت
السيارة وإن كنت لم أدر متى اخترقتها ..
لن أتمكن من الابتعاد .. إن حالة ساقى لن تسمح
لى بالقيادة أكثر من هذا ..

أوقفت السيارة على جانب الطريق ، ورحت أنظر
حولى .. كان النهر يتفرق من بعيد ، وخلفى رأيت
محجراً مهجوراً يبدو أن عمالنا كانوا يعملون فيه
منذ أيام .. حقاً لم يستغرق الأمر أكثر من أيام ..

قررت أن أتوارى هنا بعض الوقت إلى أن أجد
إحدى سياراتنا الفارة من زحف السوفييت ..

توغلت فى المدخل ، وتركت نفسى أنزلق على
الصخور الحادة التى تلوئت بالكثير جداً من دمي ..

وفى النهاية هأنذا أرقد على أرضية المحجر كما
أنفاسى ، وفى يدي المسدس بانتظار أول قادم .. لن
أطلق عليه الرصاص لأن ذخيرتى لن تكفى ..
سكون الرصاصة من نصيبى أنا ولن ينالونى حياً ..

كان دمي ينزف بعنف .. ولم أفهم أن هذا المحجر
المهجور لم يكن سوى ثغرة .. الثغرة الوحيدة فى
بولندا ربما .. وقد دخلتها ونزفت دمي فيها لأنسى
المختار .. لا بد من حكمة لهذه المصادفة .. إن قدمى
وهدهما لم تجلباتى هنا ، بل كانت قوى أكبر منى
وأعصر على فهمى ..

ولم أدر متى غبت عن الوعي أم تراتى نعمت ؟

* * *

لفظ حين لفقت من نومى أم من إغماعى وجدت نفسى
هنا .. فى جانب النجوم ..

للف أمام السادة وأعترف : ما كانت الأرض لتعرف
أمر منى فى أعوامها الطويلة المفعمة بالشقاء والفظائع ..

* * *

فرغ النازي العجوز من سرد قصته ، ووقف
ينتظر رأى الوحوش الجالسة من حولنا ..

كان الدخان الأسود يتصاعد من أكثرهم ، وهي - كما
تعلمت - علامة على الرضا ، وكان هناك واحد من لطرار
الذى بلا عيين على الإطلاق ، لكن له مخاً أخطبوطياً
تزجاً يتسرب على جوانب وجهه من حين لآخر ، كى يلمع
فى جمع ، ويبدو أن هذه كانت طريقته فى النظر إلى
ما حوله .. كان اسم هذا الشيء (داركون الجبلى)
نسبة - فيما يبدو إلى أسكتلندا ، وليس إلى الجبلى
إن كان شيء كهذا قد خطر لکم ..

قال (داركون) وهو بهتر :

- « بدالى أنه ما من قصة قد تفوق هذه .. إن
الأرضى منا ، ومكاته الحق بيننا .. »

قال (سيجفريد الأميدى) :

- « كان ليبلغ مرتبة الكمال ، لكنه ما زال عنها
قصياً .. اختار الطب مهنة .. وهو فى هذا أراد يوماً

أن يداوى الفاتين مثله .. وكان يوسعه أن يعذبهم أكثر
ولكنه لم يفعل .. أرى يا إخوان أن نستمع لقصة لثالثى
من الفاتين .. »

هنا بدا على الأمتى الغباء مزوجاً بخيبة الأمل ،
وتلفت حوله صائحاً :

- « إننا أنا خسرت ؟ كيف أخسر ؟ مستحيل أن
أخسر ! »

قلت له فى ضيق (فأتانا أكره الغباء حتى هنا) :

- « لم تخسر يا دكتور .. ما زال عليك الانتظار حتى
تسمع بقية القصص .. وإن كنت أشك فى أن يوجد
من يتفوق عليك .. لو كنت مكاتهم لجعلتك تريح
وانتهينا .. »

هناك أناس مستعدون لأى شيء كى يبقوا أحياء ،
حتى لو كانت الحياة كمشخ وسط هؤلاء المسوخ ..
أية حياة هذه ؟ إن الموت أفضل بكثير ، لكن هل
يسمحون لى بخدمة بسيطة كهذه ؟

الإعتراف الثاني
من شفتي (جون بارتريدج)
ابتعدوا عن البئر

هنا تقدم أحد الشباب - الأصغر سنًا - إلى الأمام
وقال بلهجة من يريد إنهاء الأمر سريعًا :

- « أنا (جون بارتريدج) يا سادة .. من ابتغثوا ..
هل لي أن أحكي قصتي ؟ »

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الجشع :

- « ابدأ السردي أيها الفتى .. ولتعلم أن الكذب خطيئتنا
المفضلة ، لكنها لا تمنحك فرصة النجاة .. لأحد
يكذب على سادة جانب النجوم .. »

- « لن أكذب يا سيدي .. لن أكذب .. »

وبدأ الإنجليزي يحكي قصته ..

« ابتعدوا عن البئر الجافة .. »

كانت هذه هي العبارة التي قلنا لم يسمعها طفل في قريتنا .. كانت قرية صغيرة منسية في شمال البلاد ، وبالتأكيد لم يأت منها رجل شهير أو ناجح إلى حد تخليد اسمها ..

كنا أطفالاً شياطين لا نترك حجراً إلا قلبناه ، ولا قطاً إلا شددنا ذيله ، ولا نافذة إلا كسرناها بحجر ..

كنا في كل مكان .. الإزعاج الدائم للجميع ، والتعبير للصلاق عن مقولة : إن الأطفال لانفع منهم على الإطلاق إلا التدمير .. لكننا برغم هذا لم نجسر قط على الننو من البئر ..

لقد اكتسب من كلمات آباؤنا معنى مخيفاً مجسداً لا يمكن تجاهله حتى لأكثرنا تمرداً وثورية ..

وفي طفولتنا جرؤ أحرق واحد على خرق هذه

القواعد .. كان صبيّاً نسيت اسمه الآن ، لكن وجهه كان مليئاً بالتمش ، وكان له أنف يسيل دائماً .. هذا ما أنكره عنه ، ولا تنس أن هذا الكلام كان منذ عشرين عاماً تقريباً ..

نعرف فقط أنه راح يلعب عند البئر .. نعرف فقط أننا تركناه هناك لأن الليل قد جاء ، ولأننا كنا خائفين .. ولأنه لم يصغ لنا حين طلبنا منه الابتعاد ..

وفي الثامنة مساءً دوت صرخة هائلة من الطراز الذي يجعد الدم في عروقتك ، ويجعلك غير قادر على الوقوف .. لا بد من أن تجلس .. وقد جلسنا .. وعرفنا على الفور أنها صرخته ..

ماذا دهاه ؟ لانعرف ..

وعرفنا في الصباح أن بعض الرجال حملوا كشافاتهم ومصابيحهم وذهبوا إلى مصدر الصرخة .. وكان البئر كما هو لكنه لم يعد جافاً .. عرفنا فيما بعد أن الدماء كانت تملؤه .. دماء لا يمكن لإنسان مهما بلغ حجمه

أن يأتي بكمية هائلة مثلها ، إلى درجة أن يملاً بئراً ..

قال الرجل العليمون ببواطن الأمور إن صديقنا خلف تعليماتهم .. قالوا إنه راح يلعب عند ثغر الشياطين .. والكلمة مستحدثة لم يطلقوها على البئر من قبل .. لكنها صارت اسماً مناسباً جداً من حينها ..

وأخبرتنا الجدات جوار المدفأة ليلاً أن البئر - أو ثغر الشياطين - هو بوابة .. بوابة غريبة الشأن حقاً تقود إلى عالم غريب شريـر .. وأحياناً ينجح أحد الكائنات الغريبة الشيطانية في عبور هذه البوابة ويصل إلى عالمنا .. وعندها تبدأ الأهوال ..

- « ولماذا لا تسدون هذه الثغرة ؟ »

- « لأن من يجسر على هذا يلقي نهايته فوراً .. إن لدينا قصصاً شنيعة لكنها لا تصلح للأطفال .. »

وكنا نصمت .. نتخيل .. ننام .. ننسى ..

* * *

صرت مرهقاً ..

لم تكن مراوحة هادئة تلك التي عشتها فأنتم لم تلاحظوا أن في ساقى عرجاً .. عرجاً خفيفاً .. ثمّة ساق أطول بضعة ملليمترات من الأخرى .. لكن هذا بالنسبة للمراهقين مصدر تعذيب دائم لهم ..

إنها سن وساوس للرجولة ، والحاجة إلى أن تكون أقوى .. سن مصارعت الشباب على الكلا ومسابقات العدو في الغابة .. من الجلى هنا أنتى لم لفر قط بمسابقة من هذه المسابقات ..

إنها سن الميل إلى الفتيات ومحاوله الفوز بما تعتقد أنه حقك المشروع في الحب .. لكن من الجلى أن أية فتاة لم تهتم بهى ، حتى بين فتيات القرية غير المعروفات بالجمال ..

إنها سن أن تكون مفيداً .. تحاول أن تعمل وتساعد الآخرين .. لكننى لم أستطع قط أن أساعد أحداً .. كنت بحاجة يوماً إلى من يساعدنى ..

مر الوقت .. الظلام والبرد والخوف ..

لكنى لم أكن خائفاً من البئر ولا ما فيه من كائنات
عجيبة لو وجدت .. إن الشر أكثر هولاً وأشد خطراً
بما لا يقاس ..

ولهذا لم أخف كثيراً حين سمعت صوت الأنين ..

كان قلماً من البئر بلا شك .. والغريب فيه أنه لم
يكن أنين إنسان على الإطلاق .. كان أنين حيوان
مسعور .. كأنين ذئب جريح .. وقد قررت على الفور
أنه لا يوجد سوى شيء واحد يمكن أن يصدر صوت
ذئب جريح .. إنه ذئب جريح لا أكثر ولا أقل ..

ودنوت من الحافة أكثر ونظرت ..

برغم الظلام استطعت أن أميز ما يحدث هناك ..
وقف شعر رأسي ..

لم تكن الجذات مخرفات بصدد البئر .. لم يكن
مخرفات على الإطلاق ..

* * *

وجاء اليوم الذي اصطدمت فيه بـ (جيمي الخطاف) ،
وهو بلطجي صغير من بلطجية القرية المسادين ، الذين
يكرهون أن يمر يوم من دون تعذيبى أو مضايقتى .. وقد
آتيته جيداً .. آتيته بقوة وخمشت وجهه وعضضته ..
لكنه فى النهاية لقتنى علقة ساخنة ودرسا قاسياً ،
خاصة أن العض والخمش جعلاه أكثر عصبية وتوحشاً ..

وفى للنهاية رحت أركض على ساقى السليمة ، محلولاً
الفرار منه ومن عصابته ..

خرجت من القرية .. كانوا خلفى ..

ركضت عبر الطريق الترابى الذى يقود إلى المزرعة
المهجورة .. كانوا خلفى ..

فى النهاية وصلت إلى البئر الجافة ، وكان الظلام
قد حل ..

وأدركت أنهم لن يفكروا أننى هنا .. فقط على أن
أنتظر وقتاً أطول ، وسرعان ما يعودون أراجهم ..

* * *

كان هذا الشيء يحاول الخروج من البئر ..

استطعت أن أرى عيونته الأربعة النارية تتوهج في الظلام ، بينما أشياء لا أدرى ما هي تتمسك بجدران البئر من الداخل .. فهمت على الأقل أنه شيء هلامي منزلق .. وأن له أطرافاً مثل الأخطبوط ..

لا أدرى لماذا لم أجد مبتعداً .. لقد وقفت كالمسحور أرمق ما يحدث ، وقلت لنفسى : إنتى لو رحلت فلن أعرف أبداً ما كان هذا الشيء ..

- « س .. ل .. ع .. د ... ن ... ي .. ي !! »

كان هذا هو الصوت الذى خرج منه ممزوجاً بالأنين والعواء .. صوت رغوئى غريب جدٍير بأن يصدر من كتلة الهلام هذه .. ولم أكن أعرف كيف أعين كتل الهلام ، لهذا وقفت مرتجفاً عاجزاً عن رد الفعل ..

- « س .. ل .. ع .. د ... ن ... ي .. ي !! ولسوف

أكسب ... ك .. الق ... وة !! »

لسبب ما فهمت أنه صادق .. كائن كهذا بالتأكيد يعرف ما يتكلم عنه ..

- « كيف .. كيف أساعدك ؟ »

- « لحم آدمى ! لحم آدمى ! »

سرنى هذا .. على الأقل هو ليس الشيطان ببغى روحى .. لست متديفاً لكنى أعرف أن بيع الروح للشيطان خطيئة .. أما هذا فهو مجرد غول .. غول أحمق ببغى لحمًا ..

عرفت كذلك على الفور أنه قادم على الفور من ذلك العالم المخيف الذى تحدثت عنه الجدات .. العالم الذى تسكنه المسوخ والغيلان .. وهو جدٍير بحق بأن يكون منهم .. من الواضح أنه استهلك قواه فى عبور الثغرة ، ومن الواضح أنه بحاجة إلى الغذاء كى يأخذ الخطوة الأخيرة ..

قلت له وأنا أراجع كى لا ييلقى بممساته :

- « لحظة .. كيف أضمن أنك لن تبدأ بالتهامى

لو ساعدتك ؟ »

عاد الصوت اللزج يتردد :

- « لك عهدي ي ي ي .. لك عهدي ي ي ي ! »

- « وماذا أعرف أنا عن عهود المسوخ مثلك ؟ »

- « مس... اعد... ن... ي ي !! ولسوف أكسب... »

ك ... لقد ... وة !! »

كان الأمر مسلماً .. فهذا الكيان المخيف الذي يملأ
البئر تحت رحمتي تماماً .. وقررت أن ألعب اللعبة
حتى أشعر بالخطر .. عندها سأفر وأجلب الرجال ،
ولسوف نشعل ناراً في البئر وما حولها ..

ولكن كيف أجد له لحمًا بشرياً ؟ هذه الأشياء
لاتباع لدى القصاب ..

هنا جاء الجواب ..

سمعت صوت العصابة إياها يفتشون عنى فى المزرعة
المهجورة ، وسمعت صوت (جيمى الخطاف) يقول
لرفاقه :

- « حل الظلام ، وهو لن يأتى هنا .. إنه جبان
رعيد .. »

- « لكن لا يمكن ألا يكون هنا .. نحن لم نره يرجع
إلى القرية .. »

كان قرارى واضحاً والخطة لا تفرغ فيها ..

بحثت حولى حتى وجدت حبلاً غليظاً .. وفى الظلام
هرعت أربطه إلى جذع شجرة دائية ، ثم هرعت إلى
مكان قريب من البئر ، ووقفت هناك .. أخذت نفساً
عميقاً وصحت :

- « هيبه ! يا (خطاف) ! تعال وانظر بقطعة منى
لو جرؤت ! »

سمعت صوت السباب فى الظلام ، ثم ظهرت
الكشافات .. وصاح (جيمى) فى رفاقه :

- « إنه هنا ! سيئدم على أنه لم يولد ميتاً ! »

وسمعتهم قادمون .. نظرت إلى البئر المظلم الذى

كان الآن قطعة من السواد .. يجب أن تعمل هذه
الخطة .. يجب ..

وظهر الفتیان .. كاتوا خمسة ، وكاتوا يحملون
الكشافات ، وصاح (جيمى) حين رأى :

- « أنت أيها الأعرج .. ستدفع ثمن لعبك دور
الشجعان ! »
وتقدم الفتیان ..

فى اللحظة التالية جذبت الحبل الذى لم يروه فى
الظلام ، وتعثر ثلاثة منهم على الأرض ، فوثبت من
مكانى وهويت على رعوسهم بجذع شجرة ، وقبل أن
يفهم (جيمى) ما يحدث بالضبط رفعته من قدميه وتركته
ينزلق إلى البئر ..

لم يدرك أحد ما حدث .. فهو لم يصرخ .. فقط
تدأرت بعض قطرات الدم ، ودوى صوت كائن عملاق
يتجشأ فى غلظة .. ثم عاد الصوت فى انتشاء :

- إلى بالمزيد !! إلى بالمزيد !! -

تصلب الفتیان جميعاً وراحوا ينظرون إلى البئر فى
غياء .. ثلاثة منهم على الأرض وواحد يقف مفتوح
الساقين ، كأنما فيلم سينمائي تم إيقافه عند لقطة
بعينها .. وصاح أحدهم :

- « ما هذا ؟ ما الذى يوجد هناك ؟ »

لم أترك له فرصة للفهم .. وقنفت بنفسي عليه ليسقط
رأسه فى البئر ، وهذه المرة استطعت أن أرى أحد
الممسات الرهيبة يمتد لينقرس فى محجرى جمجمته ،
ولم يصرخ طيفاً ..

ومسحت قطرات الدم التى تناثرت على وجهى ونظرت
للباقيين ، لكن الغول كان قد ازداد نشاطاً وحماسة ..
ومن للبئر خرجت ثلاثة ممسات - كأنها الأقاعي - ليحيط
كل منها بساقى واحد من هؤلاء .. وسرعان ما كاتوا
يجرّون إلى البئر جرّاً ، بينما هم يملئون الدنيا صرخاً ..
وتناثر المزيد من الدم ..
ساد الصمت أخيراً ..



كنت حينئذ واقفاً ارتجف ، وقد فقدت تماماً التحكم في ساقى اليسرى التي راحت تهتز كذيل الأفعى ذات الجرس .. وأتركت أن مايسيل من سروالى ليس نماً ..

كنت أنا الآن واقفاً ارتجف ، وقد فقدت تماماً التحكم
في ساقى اليسرى التي راحت تهتز كذيل الأفعى ذات
الجرس .. وأتركت أن مايسيل من سروالى ليس نماً ..
كان صوت المضغ والابتلاع لا يصدق .. لا يصدق
ولا يتحمل ..

وجدت الشجاعة كى أسأل سؤالاً واحداً :

- « من أنت ؟ »

- « أنا (ببزار الأكتاسى) سيد الظلام .. الذى يأتى

قبل الجموع .. »

ثم جاء الأمر الرهيب الذى كنت أتوقعه على كل
حال :

- « ما زلت واهناً أيها الفتى .. اذهب وأنتى

بالمزيد .. ويوم أخرج من هنا سأكافئك .. »

- « وإن لم أجد ياسيدى (الأكتاسى) ؟ »

- « عندها سأجىء إليك أنا ، وستكون وجبتى ..

لا أحد يفر من (ببزار الأكتاسى) .. لا أحد .. »

وهكذا رحلت أركض كالمخبول نحو القرية ، وعنت
لقرائش مهموماً .. لا أدري لماذا تذكرت موقف الصبي
الذي وجد نفسه متورطاً مع السجين الهارب في قصة
(ديكز) (توقعت عظيمة) .. لكن موقف الصبي كان
أفضل بكثير .. لم يكن مطلوباً منه سوى سرقة الطعام
وتقديمه للسجين .. طعام من نوعية الخبز واللحم ،
أما أنا فكان على أن أقدم اللحم البشري لمسوخ قادم
من الجحيم ..

وتمنيت أن أموت فلا أصحو ..

لكني صحت في الصباح برغم كل شيء ، وسمعت
أن الرجال خرجوا يبحثون عن الفتيان المختلفين .. إن
المراهقين يذهبون لأي مكان لأي فترة من الوقت ..
ويعودون حين تصبهم لن يعودوا أبداً .. هذا
ما قاله رجال الشرطة ، وهم ينقبون في كل ركن من
القرية ..

بل إنهم فحصوا البئر انعم فحصوه فلم يجدوا ما يريب ..
وبدأت أعتقد أنني كنت أهذى أمنس لا أكثر ..

لكن جزءاً في عقلي قال لي إنني محق .. وحين
قصدت البئر لألقى نظرة أدركت أنني كنت محقاً
بالفعل .. لقد كان (بيزار) يلتصق بجدران البئر وقد
تجول إلى مادة لزجة كالغراء ، لا يراها كل من
ينظر في البئر ، لكن رأيت العينين المتقدتين
في الظلام ، وسمعته يقول بصوته المرعب الغرور :

« إن بالمزيد أيها الفاني !! إلى بالمزيد !! »

والحقيقة أن شيئاً ما بدأ يطرأ على في هذا اليوم ..
لقد بدأ العرج يزول عني ، وحين تأملت وجهي في
المرآة وجدت أنني اكتسبت سحراً خاصاً لا شك فيه ..
السحر هو النظرة .. النظرة الواثقة الهانئة في العينين ..
وذلك الطابع العام برجولة رجل رأى كل شيء وعرف
الكثير ، وليست لديه أية رغبة في الجعجة ..

قلت لنفسى : هذا طبيعي .. ومن حقى بعد ارتكاب
كل هذه الجرائم أن أكون جميلاً !

ومن يومها بدأت أمارس دوراً غريباً بعض
لشيء .. كنت أتحل رفقى ومن هم في سنى إلى البئر ..

وجاء اليوم المحتوم الذى لم أستطع أن أجد فيه
من يخرج معى إلى البئر .. لقد ساد الذعر القرية
وغدت حركتى محدودة جدًا ، وكنت أعرف أن كل
الوافدين الجدد على القرية ليسوا إلا مخبرين سربيين
يراقبون كل شىء ..

كان الضغط العصبى قد بلغ ذروته لى ، حتى إننى
لم أعد أهاب الموت .. لم أعد أهاب الغول فى البئر ..
أريد أن أنام ملء جفونى بلا هموم تنتظرنى فى الصباح
الجديد .. أنام ملء جفونى فى فراشى أو فى قبرى ..
لا يهم ..

وذهبت إليه فى البئر ذات مساء ، وقلت له :

- « حان الوقت لتغادر البئر ياسيدى .. »

- « أنت لا تحدد لى متى ولا كيف أيتها الغائى .. »

- « سوف يجدونك سريعًا .. »

نحن فى سن تحب التحدى وتعشق خرق القواعد
التي استنساها الكبار .. أراهن على أنك تخلف البئر الجافة
يا (توماس) .. من قال هذا ؟ إن دعنا نذهب هناك
هذه الليلة ..

ويذهب معى (توماس) أو (جين) إلى البئر ، وهناك
ينحنى ليلقى نظرة ، فأدفعه دفعا ليسقط فيه .. وأغمض
عينى لكنى أشعر بالدم يتناثر ، وأسمع صوت القضم
والبلع والازدراء ..

مرت ثلاثة أشهر اتهم فيها الوغد ثلاثة آخرين
بعد وجبته الخماسية الأولى .. من الجلى أنه لا يشبع
أبدأ .. متى يجد القوة ليغادر البئر ؟ لن أجد طعامًا له
للأبد ، ونحن فى قرية صغيرة ، ولن يمر شهر آخر
إلا ويتسرب الخبر الكريه : كل من اختلفوا شوهدوا
متجهين للبئر مع الفتى (بارتريدج) ..

لكنى كنت كذلك أخشى لحظة خروجه إلى عالمنا ..
كيف يمكن إيقاف وحش كهذا ؟ وأنا ؟ هل يفى بعهده
معى ؟ لو كانت الغيلان تقى بوعودها دائمًا لكان من
حقى أن أطمئن !

دوى الصوت الغليظ من البئر :

- « أنا وعدتكم أيها الغافى براحة الموت لو لم
تحقق مطالبى ؟ »

- « هذا ما قتلته لى .. كان وعيذاً لكنى الآن أراه
وعذاً .. وعذاً بهيجاً ! »
- « لقد كذبت عليك !! »

ولم أدر متى ولا كيف هوى الممس على ، فوجدت
نفسى أهوى إلى البئر وأنا أصرخ ..

ولم أدر كيف ولا متى غبت عن الوعى ، لكنى
قلت لنفسى إن هذه هى النهاية .. لقد آن لى أن
أستريح أخيراً ..

* * *

وفتحت عيني أخيراً لكن لأجد نفسى هنا .. أمام
هذه المحكمة ..

- « لن يكون هذا خيراً لهم .. اذهب وجننى
بالمزيد .. »

- « لم يعد هذا سهلاً .. »

هنا ارتفع ممس من ممساته خارجاً من البئر ،
وصفغى على خدى صفة جعنت السماء تسيل مدراراً ..
وبدأت القطرات تتساقط على حافة البئر ، وأنا أحاول
جاهداً منعها بمندبلى ..

قلت له فى غيظ وأنا أتأمل المندبيل الملوث :

- « يمكنك أن تقتلنى .. لكنى علجز عن إيجاد ضحية
أخرى .. »

- « أنت لم تحاول بما فيه الكفاية .. »

- « يمكنك أن تقتلنى .. أنا أكرر ما قلت .. لقد هدبتنى
إن أنا لم لأجلب لك المزيد من الضحايا أن أكون وجبتك
التالية .. وأعترف لك أننى سئمت كل هذا الذعر
والهلع .. يمكنك أن تقتلنى الآن وسأكون لك شاكراً .. »

لقد اختار لي الغول في البئر نهاية أفسى وأبشع
بكثير من الموت الفوري ..

واتنى لأعترف لكم يا سادة جانب النجوم أننى
كنت أشعر الأشرار ، وأسلمت أعز أصدقائى لهذا
الشيء القابع فى البئر يغلى ويمور ..

* * *

لما انتهت القصة ، ساد الصمت بعض الوقت ..
ثم تمطى (سيجفريد الأמידى) .

هنا رأيت ظاهرة بيولوجية غريبة بعض الشيء ،
ولم تكن مما يريح النفس .. لقد خرج من صدره
وهو يتمطى كياتاً هلامياً غريباً يذكرك بقنديل البحر ،
راح يزحف مبتعداً ، لكنه - (الأמידى) - انقض
عليه ليلتهمه فى ثانية واحدة .. هؤلاء القوم
إذن من الطراز الذى يلتهم أطرافه التى تقرر
الفرار ..

قال بعدها بصوته الغرورى الرغوى :

- « أرى أن هناك الكثير من الشر فى القصة .. لكنه
كان مرغماً كي ينفذ حيلته الخاصة .. وبرغم كل شيء
لا أجده بلغ القمة فى غيه .. »

- « مازال أمام البشر الكثير كي يتعلموه !! لكن
الأعشاب لا تغدو أشجاراً مهما تعلمت فنون النماء ! »

نظرت ونظر الجميع إلى مصدر الصوت ، فوجدنا
رجلاً فارح القامة منظره أقرب إلى البشر يتقدم وسط
الفراغ الأزرق .. كل شيء فيه كان أسود .. شعره ..
عيناه .. ثيابه .. أفكاره .. قلائده الذهبية العملاقة
على صدره والخواتم العاسية فى أنامله ..

صوت قهبر الحنجرى ، والنبيرات الواثقة التى تحمل
طابع شرق أوروبا ..

لو لم يكن الدكتور (لوسيفر) هنا فأين يكون؟

مشى فى تودة إلى المنصة ، وكان صغير الحجم
رقيقاً - ربما وسيماً - بالنسبة لهذه الغيلان المخيفة ،
لكن من الواضح أن تأثيره نافذ وأن له هبة ومكانة
عظيمتين هاهنا ..

التفت إلى الورا فالتقت عيننا .. هز رأسه هزة
مجاملة مهذبة ، وابتسم ابتسامة جاتبية .. ومن
الغريب أتنى حبيته كذلك بحكم العادة ، كأنه صديق
لى قابلته فى القطار ..

قال وهو يفرك كفيه المغطيتين بققازين :

- « ماذا أرى ؟ ماذا أرى ؟ إن لم يكن هذا هو
الدكتور (إسماعيل) بشحمه ولحمه القليلين .. إنه
ضيقى .. به أسعد وله قلبى يطرب .. يبدو أننا سنمرح
كثيراً هنا .. كما اعتاد السادة أن يمرحوا ! »

قلت له وأنا برغم كل شىء أشعر ببعض الألفة
لوجوده على طريقة (إلى تعرفه ..) :

- « قل لى .. أين نحن وما معنى هذا كله ؟ »

- « أنت كما قيل لك بلا زيادة ولا نقصان .. أنت
فى جانب النجوم .. تخاطب سادة النجوم .. وعليك
أن تثبت أن لك قلباً أشر من الشر .. إن للنجاة
ثمناً .. »

- « وماذا أتى بى هاهنا ؟ »

- « أتى بك حظك العاثر ، وأنت أدرى منا بحظك
العاثر .. ربما كانت هناك مسحة إحياء من صديق قديم ..
هل تذكر العجوز الذى لصطحبته فى سيارتك ؟ ربما لم
يكن عجوزاً .. ولربما كان هو الرجل .. ورهاتى كان
أنك من بعدى تدخل الثغرة .. ورهاتى كان أنك تدمى
نفسك .. ورهاتى كان أنك تنام هناك .. لقد تركت لك
الأفكر ، وتركتك تفعل .. »

صحت فى رعب :

- « كنت أنت مسافر الليل ؟ إذن هو كمين ! لا أكثر
ولا أقل ! »

قال بصوته البهري الذي يجعلك ترغب في سماع
المزيد منه :

- « بل هي دعوة إلى حفل .. وفي الحفلات نلتقى
دوماً .. حفل في (نيويورك) وحفل في (هالماجيو)
وحفل في جانب النجوم .. د. (لوسيفر) لا ينسى
أصدقاءه القدامى ، حتى وإن كان في هذا ضعف
بشرى .. أي ضعف .. »

- « والمطلوب مني ؟ أنت تعرف أنني لم أقترف
شراً أخطر من سرقة المرابي من مطبخ
خالى .. »

ضحك ضحكة عالية لكنها بلاصوت على الإطلاق ،
وقال وهو يجلس في الفراغ :

- « حقاً ما من بشرى يحسب أنه ليس ظاهر الذيل
كالأطفال .. ربما أخطأت يادكتور (إسماعيل) ، وربما
كثرت خطاياك أقطع من خطايا هؤلاء .. أنت لا تعرف

نفسك .. لكن الخطأ الأول أن تقول في تبجح الفائقين :
أنا لم أخطئ .. »

ثم تركنى أفكر في معنى كلماته ، ووجه الكلام إلى
رفاقي في هذه المحاكمة :

- « فليتكلم من عليه أن يتكلم .. وليصمت من عليه
أن يصمت ! »

كان من الواضح أن سلطته نافذة هنا .. كأنه مدرب
السيرك الذي يتعامل مع الوحوش التي يفوق حجمها
حجمه عدة مرات .. وتقدمت الفتاة ذات اللهجة
الفرنسية ، وكانت جميلة بحق لكن من الواضح طبعا
أنها لا تملك قلب طفل .. فوقفت أمام المحكمة ،
وقالت :

- « أنا (بيتريس نوبير) .. هل لي أن أحكي
قصتي ؟ »

قال (سيجفريد الأמידى) بصوته الجشع :

- « ابنى السرور أيتها الفتية .. ولتعلمى أن الكذب
خطيرتنا المفضلة ، لكنها لا تمنحك فرصة النجاة ..
لا أحد يكذب على سادة جائب النجوم .. »

- « لن أكذب ياسيدى .. لن أكذب .. »

وبدأت تحكى قصتها ..

★ ★ ★

الإعتراف الثالث

من شفتي (بياتريس لوبير)
المقصلة

قالت (بياتريس لوبير) :

حين يغدو الدم في كل مكان ، لا تضير بعض قطرات أخرى !

* * *

العام 1789 ..

(باريس) كلها تغلى بالثورة ، وبداية خبط الأحداث الدامي الذي قاد إلى إعدام الملك (لويس السادس عشر) والملكة (ماري أنطوانيت) ..

كان الغضب في كل مكان من شوارع العاصمة المنهكة التي أدامها الفقر والحقد على النبلاء .. وكنت بذور الشر تغرس في كل مكان ضد ملوك البوربون ، مع تهديد واضح بالانتشار في كل بقاع أوروبا .. وكنت الثورة الفرنسية هي كابوس الملوك في كل بقاع القارة ..

كنت أنا وقتها فتاة تبيع الزهور في شوارع المدينة .. لم يكن هناك من يريد الزهور ، ولا أحد يملك المال الكافي

إلا للطعام .. أقل الطعام ، لكن الناس كانوا يشترون مني لأتني حسناء .. وليس يوسع الرجال أن يقاوموا شراء أى شىء تعرضه عليهم فتاة حسناء ..

كنت أبيع الخبز فى السابق ، ثم بعث للبن بعض الوقت ، ثم جاء دور الزهور .. ولم يزد الدخل أو ينخفض كثيراً .. فلو أتني جبت الشوارع بحجارة لبعث منها يوماً ما يقيم أودى ..

حياتنا نحن الهوام لا تتغير .. فقط يدخلها بعض التشويق وبعض الإثارة من حين لآخر .

أذكر يوم هدم العائمة سجن الباستيل .. كنت أرى جموعهم فى الشوارع وهم يتصايحون ويهللون ، ثم سمعت صوت الرصاص ، وبعدها دوى صوت مدفع .. نعم .. عرفت بعدها أنهم ظفروا بمدفع وهاجموا به الحامية الصغيرة التي تحرس السجن .. وكان يوماً لا يمكن نسيته .. رباها أشياء كهذه تجعل الحياة أكثر جاذبية وقابلية للتحمل ..

هنا يجب أن أعترف بشىء مهم ..

كان اسمه (بيير) ..

بالتعب هو وسيم قوى .. الرجل الذى أهيم به
حباً لا بد أن يكون وسيماً قوياً ..

كان خبازاً ، وكان قد جاء من الريف من فترة
قريبة .. وقد قابلته فى المخبز ، فأهدتني رغيفاً ساخنًا
وأهديتني زهرة حمراء .. ومن يومها عرفنا أننا
متحابان ..

كان رقيقاً .. وما زلت لا أفهم سبب هذه الرقة فى
رجل يفترض منه الخشونة ، بينما أنا الأثنى قادرة
تماماً على خنق كلب صغير دون أن أهتم بذلك ..

اعتدنا للقاء فى غابة الكرز خلف المدينة ، وتعاهدنا
على أن نتزوج ، وعلى أن نكون سعيدين .. لا أرى
كيف ، لكننا صممنا على هذا .. وكأنت المدينة تغلى
بعنف مما أشعرنا أن كل شيء ممكن فى الأيام التالية ..

ورحنا فى استمتاع نراقب الأحداث المتصاعدة
بلا هوادة ..

أنا إنسانة باردة جداً .. لا تعترف لحظة بالأم
الآخرين . لا أدرى السبب ولا متى نشأت لدى هذه
الخبرة .. فقط أذكر أفنى كنت منذ الصغر قادرة بلا تردد
على تحطيم عنق بجاجة أو خنق قطة .. لم أكن أهتر
ككلفتيات الحمقات حين أرى شخصاً ينزف أو طفلاً يدمع ..

وحين تحمست للثورة المشتعلة فى العاصمة ، لم
يكن هذا بسبب كبت طال ، أو احتياز للفقراء الذين
أنا منهم ، ولكن كان هذا لأنى توقعت أن أرى المزيد
من العنف والدماء من حولى ..

قاسية ؟ ربما .. لكنى لوكد أن عواطف 60 بالمائة على
الأقل من فقراء باريس كانت من هذا الطراز .. لم
يكن الجميع ثوراً وشهداء .. كان هناك عدد لا بأس به
أحبوا الفرصة التى تمنحها لهم الأيام القادمة .. مزيد
من التوحش والدماء وإطلاق غرائز العنف من عقالها ..
متبلدة ؟ لا .. ليس إلى هذا الحد .. لأننى كنت فى
ذلك الوقت غارقة حتى الآنين فى قصة حب ..

المسلطة تفلت بالتدريج من الملك و(دافتون) و(مرا)
و(روبسيير) يسيطرون على كل شيء تقريباً، بينما
شارات الثورة مثلثة الألوان تنتشر في كل مكان ..
وبدأ مشهد جديد مسل يستولى على ألباننا ..

العربات التي تجرها الخيول، يقف في مؤخرتها
النبلاء الذاهبون إلى المقصلة، وهم يتجنبون نظراتنا
في خزي .. بينما نصطف نحن على جانبي الطريق
نقذفهم بالبيض والحجارة والسباب .. أذكر في مرة أن
عربة كهذه مرت بنا، ثم سقط من أحد النبلاء شيء
ما في الوحل .. هرعت لأرى ما هو، فوجنتها وثيقة
لم أعرف ما بها، لكنني لمحت أسفلها توقيع الملك
وخاتمه .. نظفتها ودسستها في صدري دون أن
أعرف لماذا أفعل .. لكنها بدت لي أثراً نفيساً ..

كانت لنساء بيكين، والرجال يتظاهرون بالتماسك،
بينما نحن نخرج أعف ما في أعناقنا من مقت وحقد ..
ثم نهرع إلى الميدان لعلم، حيث يقف اختراع للدكتور
(جيلوتين) الرهيب .. آلة الحصاد التي تم تحويلها

إلى أداة لقطع الرعوس .. وكنا نتصايح ونهمل ..
بينما يتلو منفذ الحكم جرائم المحكوم عليه ..

لم تكن نصغي لهذه الجرائم .. فهي لا تصيف شيئاً
إلى الحقيقة التي نعرفها جميعاً .. هذا النبيل يعدم لأنه
نبيل .. لأنه ثرى ثيابه نظيفة ولم يعرف الجوع قط ..
هذا سبب كاف والباقي تليفق من (روبسيير) الجزار
الذي يتفق ذوقه مع ذوقي ..

ويضع النبيل رأسه في الفتحة ويهوى للنصل الحاد،
فنهمل جميعاً .. ويرقع الجلد الرأس أمامنا - والأهم -
أمام من ينتظرون دورهم ..

قلت لكم إنها كانت من أجمل أيام حياتي ! لكن
هذه اللحظات كانت في سبيلها للنهاية .. لماذا ؟
لقد ظهرت (ميشيل) ..

* * *

(ميشيل) كانت فتاة من الطراز الذى يصفه الرجال بالرقة وأصفه أنا بالموات ..

كانت صانعة كعك جاءت إلى باريس أخيراً ، وقد عملت فى المخبز الذى يعمل به (بيير) .. وقد بدأت ألاحظ تغيرات عجيبة بعض الشيء .. فى البدء صار يلاحقها بنظراته ثم بكلماته .. بعد هذا لم يعد يلحق بى فى الغابة ، أو يلحق بى ولكن بشكل غير منظم ..

سألته عن السبب فقال إنه مشغول ، لكنى ألححت عليه فقال :

- « لاشيء .. فقط نحس أحياناً بالرعب من صوتك .. من عدم ميالاتك بالأم الآخرين .. »

صحت فى حماسة لا بد أنها جعلتني فاتنة :

- « البلد كلها فى ثورة يا (بيير) .. كل شيء يقضى .. لعل هذا هو السبب الذى لم تعد تحضر معه عمليات الإعدام .. أتراك تجدها قسوة ؟ »

- « عمليات الإعدام قد تكون مهمة .. وقد تكون هى القاتون .. لكن حضورها ليس واجباً على .. إننى أقبليها كما يقبل المريض أن يجرع العقار المر .. لكن ليس على أن أطرب لها .. »

وابتلع ريقه وتحاشى نظراتي وأردف :

- « وأنت .. كما أرى - تطربين أشد الطرب لها »

- « آه !! و (ميشيل) هى الأخرى لا تطرب لها ! »

قال فى ضيق وهو يعود لعمله :

- « لا تتكلمى عن (ميشيل) بسوء .. فالفتاة أظهر

من طفل .. إنها فقط لا تطيق الأم الآخرين .. »

وجن جنونى فركلت العجين الذى وضعه فى بناء جوار

الفرن ، وغادرت المكان وأقسمت ألا أراه ثانية ..

فى المساء أرسل لى رسالة مع غلام أجرب .. لم يكن

بالطبع أعرف للقراءة إن كان هو يعرف الكتابة ، وقد

اتجهت إلى جارنا الذى يعمل مع الشرطة بصاصناً ..

فقرأها لى وكانت هى ذاتها كلمات (بيير) لى فى
المخبز ، وإن جعلها أكثر ترتيماً .. وقال لى جارى :

- « ليتها الحساء .. هذا زمن خطر .. وكلمات كهذه
ليس من المحب أن يجدها أحد معك .. أقترح أن
تتخلصى من هذه الوريقة سريعاً .. »

قلت له وأنا أفسها فى صدرى :

- « لا تخف .. سأفعل .. »

* * *

كان اسمه (بيير) .. وكان اسمها (ميشيل) ..

وقد راح صدرى يعلو ويهبط من فرط تفاعل وغيظ ،
وأنا أراقبهما من وراء شجرة الصفصاف ، وقد جلسا
قرب الجدول وراحا يتهامسان .. وكان يقضى لها ..
وأدركت أنهما سعيدان بالبعد عن الزحام المجنون ..
عن الدماء ومواكب النبلاء المتجهة إلى المقصلة
وصخب الوحوش مثلى ..

وحين انتهى اللقاء واجهت (بيير) بما أعرفه ..
هذه المرة لم يتحدث عن الملائكة والأطفال .. فقط
أشاح بوجهه عنى وقال :

- « آسف يا (بياتريس) .. لأحد سيطر على قلبه ..
وقد وجدت النصف الآخر منه لدى (ميشيل) .. حين
أحببتك اتبهرت بجمالك ونسيت أن لك روح جلال ،
بينما (ميشيل) قد لا تحمل وجهك الخلاب لكنها
تحمل روح قنيس .. »

انتهى الأمر .. لن أجادل كثيراً .. أنا لن أتوسل له ..
(بياتريس) لا تتوسل .. لقد فقدته وعلى أن أقبل هذا ..
لكن من قال إننى سأقبله ؟ إن الحب كعصير العنب
سرعان ما يتلف ويستحيل خلا لا يمكن شربه .. لقد
رأيت هذا يحدث مرورا .. أعصف الحب لا يصير إلا أعصف
المقت وهذه طبائع الأشياء ..

وفى المساء اتجهت إلى جارنا للبصاص وقلت له :

- « أريد أن أذهب إلى المحكمة الثورية .. لدى
ما أقوله لهم .. »

كان يحب هذه الأمور ، لذا راح يتكلمنى فى الطرقات ،
وصوت مركوبه الخشبى يضرب أحجار الطريق ..

هناك كان الثوار جالسين يثملون ، وعلم الجمهورية
ثلاثى الألوان يتلى فوق رعوسهم .. تكلمت من الزعيم ،
وقلت له إتنى أريد الإبلاغ عن (ببير لافون) الخباز ..

- « إنه جاسوس للملكيين .. ولدى الدليل .. »

ثم أخرجت الخطاب الذى أرسله لى (ببير) ، وكان
يقول فيه بوضوح إنه لا يطيق ما صارت إليه الثورة
من دموية .. وإته لن يذهب ليرى الإعدام أبداً ..

قال الرجل وهو يتأمل الخطاب :

- « جميل يا حلوة .. لكن هذا كلام عام قد يقوله

أى شخص مرهف الحس .. »

هنا مددت له يدي بالخطاب الثانى الذى سقط من
عربة النبلاء ، وكنت قد جعلت أحد القوم يقرؤه لى ..
وعرفت ما فيه .. وهكذا راح الرجل يقرأ بصوت عال :

- « نحن (لويس السادس عشر) ملك فرنسا ، نوصى
كل رعايتنا بالاهتمام بحامله نظراً لكل ما قدمه لنا
والملكية من خدمات جليلة .. ثم توقيع الملك وختمه .. »
رفع الرجل عينيه المحققتين إلى الرجال ، وهمس
لى :

- « هذا خطير جداً .. أين وجدت هذا ؟ »

- « فى المخبز .. إته يداريه تحت حجر كبير لكنى
سرقته منه .. »

ونظر الرجل إلى أعوانه وهنّف بلهجة أمرة :

- « اعتقلوا الخباز (ميشيل لافون) حالاً .. »

- « وفتاة تدعى (ميشيل لاريف) كذلك .. إنها
جاسوسة معه ! »

وهكذا تم الأمر .. كانت محاكمة صورية رأيت
مثلها مراراً .. تهريج لا أكثر .. ولم تكن لدى الفتى
أية حجة ولم يصدق أحد أنه لم ير صك الملك من
قبل .. أما الفتاة فقد تطوعت بالشهادة بأنها

جاسوسته .. كلاهما كان ينقل أخبار الثوار إلى
الملكيين .. وكلاهما كان يضغط على أعصابه وهو
يرى مواكب الإعدام اليومية ..

وفي نفس الجلسة ونفس الساعة أصدرت المحكمة
حكمها على الحبيبين بالإعدام .. فقدت الفتاة وعيها ،
على حين تماسك (بيير) .. نظر لي بعينين من نار
وقال ضاغظاً على أسنانه :

- « فلينتقم الله منك .. ولتكن مملوئنا البرينة
وبالاً على رأسك .. »

لكني لم أهتم ..

وبعد ثلاثة أيام تخننت مكثي وسط الجماهير .. كنت
في أول الصف كي أرى بعيني تتقلص بنفذه حد المفصلة
الرهيبة .. هذا شعاري .. إما لي أولن تكون لأحد ..

وجاء الحبيبان .. وتمت العملية في سلاسة ويسر
مما جعلني أنتشى من دون طلا .. لقد سال دم كثير ،
لكن ما أهميته جوار كل الدماء التي سألت من قبل ؟

نحن في زمن مخيف بأرجال .. نحن في زمن
مخيف !

* * *

كن اسمه (بيير) .. لكنه الآن لم يعد اسماً .. وحين
جاء المساء ذهبت إلى الغابة حيث اعتدنا اللقاء ،
وجلست وحدي .. هذه المرة كان شيء من الندم
يقمرني .. لماذا فعلت هذا ؟ هل أنا حقاً بهذه القسوة ؟

مازلت أحب نفسي وأحترمها .. مازلت أشعر
بأنني فقط إنسانة تعسة لم تؤت ظروفًا تناسب
جمالها .. ولم تؤت روحًا تقبل ظروفها .. ولم تؤت
حبيباً يفهم روحها ..

شعرت بلن الأحرار تتحرك من ورائي فارتجفت ..
هل هي الريح ؟

لا .. لا توجد ريح ..

فقط كنت أراه قادمًا من خلفي يمسك بيده الفتاة ..
وكلاهما من دون رأس .. وكان يقول لي من دون فم :

- « فلينتقم الله منك .. ولتكن دماؤنا البرينة وبالأ
على رأسك .. »

لم يكن هناك لكنى شعرت به بقوة .. أصابنى الهلع
فرحت أركض بين غصون الأشجار .. اصطدم غصن
بوجهي فسال دم كثير .. لكنى واصلت الجرى ..

فجأة .. تعثرت .. شعرت بالأرض تميد من تحت
قدمي .. صرخت وأنا أنزلق لأسفل ..

وفهمت أنني وقعت في حفرة غير ظاهرة ..

فهمت هذا وأنا أنزلق وأفقد للوعى إثر ارتطام
رأسي بالقاع ..

وحين أفقت وجدت نفسي هنا أمامكم معشر سادة
جانب النجوم .. ومن جديد وكما قال الآخرون :
أشعر بأننى عن جدارة أستحق أن أفوز بالحياة
وأستحق لقب أشر القاتين الذين جاؤوا هنا ..

* * *



كنت أراه قائماً من خلفي يمسك بيده الفتاة وكلامها دون رأس ...

مقاطعا سألته همنا :

- « هل يعنى هذا أن كل هؤلاء انتظروا كل هذا الزمن بانتظار أن أشرف أنا لتبدأ المحاكمات ؟ إن الفتاة تحكى قصة وقعت منذ قرنين .. »

- « لا وجود للماضى أو الحاضر أو المستقبل فى جانب النجوم ياد. (إسماعيل) .. الفتاة عاشت قصتها منذ قرنين لكنها جاءت للمحاكمة فوراً .. هى تعرف أن لها هنا قرنين ، لكنها تعرف كذلك أنها حوكت فور وصولها إلى جانب النجوم .. لا تناقض هناك ! بل قل إن جانب النجوم هو التناقض ذاته حيث لازم .. لا أبعاد ! »

هنا فوجئت بشيء مريع يظهر .. لقد اعتدت الأشياء المريعة لكن هذا كان أسوأها على الإطلاق ..

كان ذنباً هائلاً .. يمشى على قدميه الخلفيتين ، ويعوى .. إن ارتفاعه واقفاً كان ينمو من ثلاثة أمتار .. أى أنه بارتفاع سقف الحجرة التى أنت فيها الآن .. عناه جمرتا نار وادم يسيل من فمه المغمم بالأنياب ..

نظر (سيجفريد الأميدى) الرهيب إلى (لوسيفر) والدخان يتصاعد منه كعلائته كلما رضى عن شيء .. وعوى (روكيان) و(فلاد) بينما راحت أوردة (يوليان) المقتصب تزحف على الأرض بحثاً عن شيء تشربه .. وقرب منه أحدهم دلوا علينا بشيء أحمر - دماء غالباً - فهوت الأوردة عليه وراحت ترشف ما بداخله فى نهم .. كل هذا وصاحب الأوردة يتابع الكلام بلا احتفال بها ..

قال (الأميدى) والدخان يزداد كثافة :

- « هذا شر خالص .. شر نقى قلما نراه فى الفاتين .. »

قال د. (لوسيفر) وهو مازال جالساً يبحث فى سلسلة عنقه الذهبية :

- « أنت تقول .. لكن فحواه ليست شراً خالصاً .. ثمة هوى محبط .. والرغبة فى الحب لا غبار عليها بالنسبة للفتين ، ومن الوارد أن نخوض كراهية نموية .. أرى أن نستمع إلى القصة التالية .. »

وقال أحد المجتمعين :

- « (أمبروزو المذعوب) يطلب العبور إلى عالم
الفتانين .. »

قال (الأميدى) فى غير اكتراث :

- « فليذهب .. وليكن الحظ حليفه .. »

ورأيت (أمبروزو) يرفع رأسه دفعا فى جدار أزرق
لا وجود له .. يضربه بعناد وهو يعوى بلا انقطاع ..
يضربه .. والشعر الأزرق ينبعث من حوله .. وفى
سقف القاعة راحت آلام الأيدي ذات المخالب تصفق
فى استمتاع ..

الجدار الذى لا أراه يمثل ببطء .. الثغرة تتسع ..
إنه يعبر ..

سألت فى لهفة وذهول :

- « هل هذا مذعوب ؟ ماذا عن مذعوبى الأرض
لطيفى المعشر رقيقى الحاشية ؟ »

قال (لوسيفر) بلهجة الحكيم الذى يعرف أكثر :

- « هذا هو منظرهم الحقيقى .. هذا الذى رأيته
سيخرج الآن من ثغرة ما فى (رومانيا) .. ربما فى
كوخ قديم أو كنيسة مهجورة .. الكنائس المهجورة
ذات خطر جسيم لأنها أماكن كانت الصلوات تقام فيها
ثم لم تعد .. أماكن العبادة التى كفى الناس عن
ارتياها وتسوها هى أخطر الثغرات التى يعبر منها
سادة جاتب النجوم .. بعد أن يخرج (أمبروزو)
سيأخذ شكلاً أقرب لما تفهمونه أنتم ، ويجرح أول
عابر سبيل .. وهكذا يتفشى وباء المذعوبين لفترة
طويلة .. »

ثم عاد يكرر طلبه إلى المحكمة :

- « القصة التالية ! »

تقدم الشاب الثانى من قلب العنصة ، وسط ضوء
(الإكلديس) .. ورفع يده هاتفاً :

- « أنا (كاسيوس توماسوس) .. من روما العظيمة ..
هل لى أن أحكى قصتى ؟ »

قال (سيڤريد الأميدي) بصوته الجشع :

- « ابدأ السرور أيها الفتى .. وتعلم أن الكذب خطيئتنا
المفضلة ، لكنها لا تمنحك فرصة النجاة .. لأحد يكذب
على سادة جانب النجوم .. »

- « لن أكذب يا سيدي .. لن أكذب .. »

وبدا يحكى قصته ..

* * *

الإعتراف الرابع

من شفتي (كاسيوس توماسوس)

أرينا

قال (كاسيوس توماسوس) بلغته اللاتينية العتيقة التي أثار دهشتي أنني صرت أفهمها فجأة :

- « الخبز وألعاب السيرك .. هذا هو كل ما يحتاج إليه الشعب الروماني في عصر أمجاد روما .. لقد قللها مؤرخون كثيرون ، ولم يدركوا كم هي صائفة .. »

* * *

إن اسمي يوحى بالعظمة .. لكنني لست قائداً رومانياً ولا من رجال مجلس الشيوخ لو خطر لكم هذا ببال .. أنا مجرد حداد .. صنع سيوف يجلب بها الرجال الآخرون المزيد من المجد لروما ..

لكن المدينة العظيمة لم تقض وقتها كله في القتال .. كانت ترتقب بشغف يوم السيرك ، حيث يذهب الجميع إلى (الأرينا) ، التي تقام فيها المباريات .. كل شيء يمكن أن تراه هناك ، بدءاً بسباقات عربات الخيول ،

مروراً بالمعارك البحرية التي يتم ملء الحلبة بالمياه من أجلها ، مروراً بمصارعات العبيد حتى الموت ، وانتهاء برمي المسيحيين إلى الأسود ..

كانت روما كلها تنتظر هذه اللحظات في شغف ، ويمكن لأي معاصر أن يتهمنا بالتهمة التي سيصكونها في القرن التاسع عشر : السادية .. لكن لو فكرت في الأمر لوجدت أننا لم نكن بهذه القسوة ..

نحن نعرف ما يدور على الأرض الآن .. ونعرف أن هناك في العالم المعاصر من يترك ديكين يتصارعان حتى الموت ، وهناك أطفال يهوون إغراق الكلاب الصغيرة ، وهناك مذابح جماعية وإبادة عرقية .. حقاً لم يتخلص الإنسان من القسوة بعد ، وما زال لا يختلف كثيراً عن جمهور الرومان الذي يزدحم في (الأرينا) .. ولا أستغرب كثيراً حين أرى فتاة تصرخ في وحشية في إحدى مباريات المصارعة الحرة الحديثة ، تطالب بظلمتها بأن يهشم عنق الآخر .. هذه الفتاة لا تختلف عن فتيات عصرنا اللواتي كن ينهضن

صارخات قى توحش ، وهن بشرن ببهامهن إلى
أسفل ، بما معناه الموت للمصارع الساقط على
الأرض ..

كان السيرك الشهير هو (سيركس ماكسيموس) ..
أشهر سيرك على الإطلاق فى التاريخ كله .. أنشأه
(بوليوس قيصر) ، وكان يتسع لعافى ألف متفرج ..
ويقال إن (بومبى) العظيم أقام خمسة أيام من ألعاب
السيرك مات فيها خمسمائة أسد وعشرين فيلاً ..

هناك كنا نستمتع بالمصارعات بين العبيد .. يخلب
لبنا الريتاريوس الذى يقاتل بالشبكة ، ويحاول أن
يشل حركة خصمه السيكوتور .. والمصارعون على
الخيول .. وحاملو الهراوات .. الخ ..

لكن أسوأ السائدين كما تصفونهم .. أشد الأشرار ..
كانوا هم الحكام الرومان أنفسهم .. يبدو أنهم جميعاً
كانوا مجانين ، ولم يكونوا يعيرون الحياة البشرية
أدنى اهتمام .. وكنا فى عصر أكثر الحكام جنونا
على الإطلاق : كاليجولا .. الابن الأصغر لقائد عظيم

هو (جرمانيكوس) .. الذى أطلق عليه اسم (كاليجولا)
تهكماً من أحدىته العسكرية .. إن (كاليجولا) باللاتينية :
(الحذاء الصغير) ..

هذا هو المنظر الخلفى لقصتى ، وهو كما ترون
غنى بالعنف بالقسوة بحيث لا يحتاج إلى مزيد ..

* * *

متى صرت شريراً ؟

الإجابة المعروفة هى أنتى لا أذكر .. لكنى لم أر فى
نفسى خيراً قط ، ومنذ شبابهى لم أتورع عن شيء ،
لأنى - كما قررت - لا جدوى من إصلاحى .. كنت أغش
ولسرق وأطفف فى تجارى ، لكنى لم أقتل قط
ولم أتسبب فى مقتل مخلوق .. حتى هذه اللحظة ..

كنت أتعامل مع القصر ، فأصنع الأسلحة للإمبراطور ..
وكانت هذه الفترة هى فترة الرحمة فى حياته .. كان
مازال عاقلاً يسوس البلاد بعناية ، قبل أن يجن
ويعتبر نفسه إلهاً ، ويعين حصانه مستشاراً ، ويقتل
أقربيه ، وما إلى ذلك من هذا الهراء الذى سمعه
اللاحقون وضحكوا منه أو ارتعبوا ..

أحياناً كنت أقبّله في بلاطه وسط حراسه ، فكان
يتفحص السيوف التي أصنعها ويختار بعضها ويجزل لي
العطاء .. كان رجلاً عسكرياً يحب السلاح الجيد ..

ذات يوم كان رائق المزاج (أم لعله ثمل ؟) فراح
يتجاذب أطراف الحديث معي .. سألتني عن السيرك ،
وما إذا كان يروق لي ، فقلت له وأنا أخفض نظري
تأدياً :

- « جميل ياسيدى .. هو بهجتنا ومصدر ههنا ..
لكنى كنت أتمنى لو طعمته ببعض الدببة .. »
- « دببة ؟ هذا غريب .. »

وفي تأدب شرحت له أن الأسود تقتل ضحاياها على
الفور وكذا النمر .. أما الدببة فتعبت بها عبثاً
ولربما تجاذب دبان ضحيتها .. مما يجعل المشهد
مسلياً بحق ..

- « من أين لك هذا العلم أيها الحداد ؟ »

- « رفأى الجنود العائدون من آسيا أيها الإمبراطور ..
وصفوا لي المشهد ببراعة كأنما رسموه لى .. »

راح يفكر .. ولم أدر أن كلامى وقع من نفسه
موقفاً حسناً ..

هنا - أكرر - لم يكن قد جن بعد ، لكن أى إمبراطور
رومانى كما بحاجة إلى تسليحة للجماهير .. وتسليحة للجماهير
ضمنان الاستقرار الدائم .. وقد نفعته هذه الحاجة إلى
جلب بعض الدببة من آسيا .. لأمشكلة هناك فالإمبراطورية
الرومانية تمتد فى أرجاء الأرض .. من الجرمان
المتوحشين فى الشمال حتى وسط إفريقيا فى الجنوب ..
ومن أسوار الصين حتى سحل البحر الكبير فى الغرب ..

وجاء اليوم الذى أعلنوا عنه طويلاً ونزلت الدببة
لشراسة إلى الحلبة ، وكان أداؤها رائعاً جعل المشاهدين
يصرخون حماسية .. إن الدببة سادية تماماً مثل
المشاهدين .. ربما أكثر .. ومن الغريب هنا أن الأسود
رحيمة تكفى بالقتل والانتهاك ، لكنها لا تلعب تلك
الألعاب القاسية ..

لا أدرى إن كان هذا قرينى للإمبراطور ، لكنه فى
تلك الأيام كان قد بدأ مرضه العضال الذى أودى
بعقله إلى الجنون ..

في (الأرينا) من جديد ..

كان العرض قد بدأ وكان الناس يهللون وهم يشاهدون سباقات الخيول .. وأنا أراها مملّة بحق لأنها لا تحتوى على العنف الكافى لى ..

بعد هذا تأتي مصارعات العبيد .. وهى لا بأس بها حقاً ..

أرفع عيني لأعلى كى أرى (كاليجولا) - الذى بدأ عقله يختل تماماً - جالساً فى المقصورة وسط النساء ، يلتهم الفاكهة ويتأمل المصارعة من خلال بلورة نقية حمراء ..

العبد يسقط خصمه ببضع ضربات ، ويرتمى الخصم على الأرض عاجزاً عن النهوض .. فيرفع العبد الأول رأسه إلى الإمبراطور والمشاهدين طالباً رأيهم .. ببطاء شديد ترتفع أصابع المشاهدين لأعلى .. الإبهام

المصوب إلى السماء معناه الإبقاء على حياة الخصم ..
لقد أبلى بلاءً حسناً ومن حقه أن يعيش ..

لكن الإمبراطور يخفض إبهامه فى إشارة واضحة إلى أنه يرفض قرار الجماهير .. على العبد أن يقتل ضحيته وإلا مات هو نفسه .. قديماً تمرد عبد هو (سبارتاكوس) على القرار ، فأبيد هو ومئات العبيد الذين حاول أن ينظمهم فى ثورة تجتاح روما .. أحرق .. هل يمكن أن تقهر روما ؟

وينتهى العبد من قتل خصمه وسط احتجاج الجماهير ..
قلما اصطدم إمبراطور بإرادة الجماهير بهذا الشكل المباشر الفظ ، والحقيقة أن (كاليجولا) كان يسير فى الطريق الطويل المفضى إلى التمرد والثورة ، ولهذا فكله قواده فيما بعد .. فى مناسبة لم أحضرها بالطبع ..

بعد هذا يجيء أهم أجزاء الحفل بالنسبة لى : إنهم يلقون المسيحيين إلى الحلبة .. المسيحيون الذين يمارسون عقيدتهم سراً برغم أوامر الإمبراطور ..

هؤلاء كان يتم القبض عليهم فى الأقبية والسراديب
التي يجتمعون فيها ، وكانوا ينقلون إلى الأسود
بلا مناقشة ..

يقفون بيكون ويصلون ، وتغطي الأمهات عيون
أطفالهن .. يتجمعون فى منتصف الحلبة محاولين أن
يتحكموا للحظات المريرة القالمة .. وسرعان
ما تتفتح الأقفاص وتخرج الأسود التي طال جوعها
وتوحشت ..

إن هذه المشاهد معروفة على كل حال ، ولن أطيل
عليكم وصفها .. لكن الجمهور كان قد بدأ يتحول إلى
وحش مسعور هائج لا يمكن إشباعه أو إسكاته ..

كنت أراقب هذا الذى يحدث ، وأختلس نظرة إلى
أسفل الحلبة .. فلاحظت شيئاً فتنى من قبل ..

كان هناك عدد من المتفرجين الأكثر حماسة قد
غادروا مقاعدهم ، وعبروا إحدى البوابات الحديدية
المحظور عبورها على الجمهور .. هكذا صاروا فى
الحلبة فعلاً .. لكنهم كانوا يتسلقون بعض القضبان

الحديدية المنصوبة هناك كي يروا المشاهد الرهيبة
بشكل أفضل .. وكانوا يطمون أن الباب وراءهم ..
يمكنهم أن يعودوا له فى أى وقت يشاعون .. بالإضافة
إلى أن الوحوش كانت مشغولة ، وكان هناك عدد
من الحراس يدروعهم ورماحهم يمنعون الوحوش
لوقررت العودة إلى هؤلاء الدهماء ..

خطرت لى فكرة .. فكرة من الطراز السابق ..

توجهت إلى مقصورة (كاليجولا) وطلبت المشول
أمامه ، وكان الحراس يألفون وجهى ، لكنى برغم
ذلك صحت :

« أنا صاحب فكرة الدببة أيها الإمبراطور ! »

نظر لى وأشار إلى الحراس كي يخفضوا رماحهم ،
ثم قضم قطعة من تفاعه .. بينما زحفت على ركبتي
حتى صرت تحت قدميه .. قلت له خافض البصر :

« لدى فكرة لإمتاعكم وإمتاع أهل روما العظيمة
أيها الإمبراطور .. »

لم يتكلم فرحت أقص عليه فكرتى .. وأدركت أنها
راقت له لأن ايتسامه وحشية شاعت فى وجهه ..
كلا لم أكن أبغى التقرب له قدر ما أرئت أنا نفسى أن
أرى هذا المشهد ..

* * *

انتهت الأسود من آخر للمسيحيين فتم إخلاء الحلبة ..
دخل الجنود برماحهم ودروعهم واقتنوا الأسود إلى
أقفاصها .. الرمال مازالت طرية بالدم ..

ثم أعلن مقدم الحفل عن الدببة .. انفتحت الأقفاص
وظهرت الدببة لعشرة لثى جاء بها (كاليجولا) .. كانت
جائعة كالعادة ، وراحت تدور فى الحلبة بحثاً عن
الفريسة ..

لم ير أفراد الجمهور المتحمسون - الذين يتسللون
إلى خارج الحلبة - أن البوابة خلفهم قد اتغلقت ..

لم يروا أن الحراس انسحبوا إلى الوراء خلسة ..

لم يفهموا أنهم تم استبعادهم من صفوف الجماهير
ليجدوا أنفسهم داخل الحلبة فعلاً ، وأن الحلبة ملأى
بالدببة الشرسة ..

وحين فهموا .. وحين سمعوا صياح الجماهير
المتحمس .. عندها ركضوا إلى البوابة الموصدة
وراحوا يضربونها ..

راحوا يتوسلون إلى (كاليجولا) كى يطلق
سراحهم .. لكنه كان فى حالة جهنمية من النشوة ،
ولم يكن على استعداد لإفساد متعته هذه .. كان أشد
ما راق له فى الأمر هو ذهول هؤلاء حين انتقلوا
بسرعة البرق من خاتمة المشاهدين الأمنيين إلى خاتمة
الضحايا ..

وسرعان ما انقضت الدببة .. وكالعادة كان أداؤها
باهراً وأطالت عذاب هؤلاء لتتساء أطول وقت ممكن ..

ولم نسمع صراخهم لأن (كاليجولا) كان يقهقه
فى هستيريا .. يقهقه كما لم يفعل من قبل ..

* * *

هل تسببت في جنونه ؟

لا زعم لنفسى شرفاً كهذا .. (كاسيوس توماسوس)
مجرد حداد لا يقدر على تبديل الملوك .. لكن الحقيقة
أن (كاليجولا) بعد هذا اليوم أدرك أن القسوة ميثاقه
ودينه ، وأن عليه أن يظفر بنفسى لمتع فى الحياة لأنه
سلم كل المتع العادية .. لقد تبدل (كاليجولا) من
مجرد إمبراطور سادى قاس إلى وحش مجنون ..

وكنت أنا مذعوراً وأنا أراه يتخلص من اقرب الناس
إليه ، وكل من أسدوا له العون يوماً ما ..

لماذا لا يجيء نورى ؟ لماذا لا يتخلص منى يوماً ما ؟
إنه مجنون .. والجنون لا يخضع للمنطق أبداً ..
ولا يحفظ الجميل لو كان ما فعلته معه جميلاً ..

وهكذا فررت خارج روما ذات ليلة منلهمة ، وتواريت
فى أطلال معبد قديم ..

أعتقد أنني لم أرح نفسى كما فعل كل من جاء
هنا .. وربما فعلت ..

فقط فتحت عيني لأجد أنني فى جانب النجوم ، وأن
على أن أقضى ألفى عام لا أدرى كيف مرت .. لكنى
أشعر بأننى جئت هنا من دقالبق لا أكثر ..

صدقونى يا سادة جانب النجوم .. ليس من الموجودين
هنا من هو أشر من (كاسيوس توماسوس) ..
لألمت أشر الناس قاطبة لأن (كاليجولا) كان أكثر
شراً منى .. لكنى أشر الموجودين هنا على الأقل ،
ولهذا أطلب الحياة ..

* * *

انتهت القصة وكنت أنا بحق أمتع نفسي من القىء ..
إن كل هذا الشر لا يناسب معدتى جيداً خاصة فى هذه
الساعة المتأخرة من الليل ، لو كانت فى جانب النجوم
ساعات متأخرة ..

قال د. (لوسيفر) بطريقته البطيئة المنهكة :

- « صدق إذ قال إنه ليس أشر الناس قاطبة .. ربما
كان أشر الموجودين أو لم يكن .. لكنه بالتأكيد ليس
أشر من عرفت .. »

ونظرنى وابتسم ابتسامته الصفراء الغريبة ، فقلت :

- « لو كنتم تريدون مستوى أعلى من الشر فعندكم
كفار قریش .. والفرنسيون .. وعندكم جزارو (دير
ياسين) و(كفر قاسم)^(*) .. حقاً إن العالم ملىء بالشر
الذى يكفى لجعل هؤلاء الواقفين هنا هواة .. »

قال موافقاً وهو يمسح جبينه بمنديل حريرى :

(*) القصة تحدث فى أوائل السبعينات ولم تكن (صيبرا وشقيلبا)
و(لقبا) وآلاف المذاهب الأخرى قد حدثت بعد ..

- « الحق قلت .. لكننا لا نختار زوار جانب النجوم ..
هم يختاروننا .. »

قلت له فى مثل لم أستطع الخلاص منه قط :

- « أنا لن أظل هنا للأبد .. إن قصصى لن تروق
لكم .. تأكد من هذا .. يمكنكم بسهولة الفتك بى الآن
أو تتركى أعود إلى عالمنا وينتهى الأمر .. »

- « بل تنتظر .. تنتظر حتى يسمعك (فلاذ لوالشى)
ويعرف أنك من كان سبب هلاك (هالماجيو) التى
صارت (إنفرنوس) !! »

كنت أخشى هذه النقطة بالذات ، ونظرت إلى الأخ (فلاذ)
لكنه لم ينظر لى قط .. وبدا كأنه لم يسمع ما أقول ..
ونظر (لوسيفر) إلى المحكمة الموقرة ، وهتف :

- « الآن فليتكلم من عليه أن يتكلم .. وليصمت
من عليه أن يصمت .. »

هنا تقدمت الفتاة الثانية إلى الأمام .. كانت
ترتجف تهيئاً لكنها تماسكت .. من فمها خرج الصوت
الواهن المتحشرج :

- « أنا (جين هاملتون) .. أمريكية .. أرجو أن
يؤذن لي بالكلام كي أبرهن على شري .. »

يا للجنون ! في هذا المكان العجيب فقط يمكن أن
تقال كلمات هذه .. بينما في كل مكان من العالم
يكذب الشرير كي ينجو .. هل تريد رأيي ؟ معنى هذا
أن هناك أملا في عالمنا .. مازال الخير هو الغالب
وهو من يضع القواعد وهو من يحاسب الشر ..
ومازال الشر هو الأضعف وهو المحتاج إلى الكذب
والمداورة والاختباء والخداع ما دام الميزان لم
يختل فالأمل موجود ..

قال (سيجفريد الأميدي) بصوته الرغوي الذي
يحطم أعصابك إن لم تكن تحطمت من منظره :

- « ابدئي السرد أيتها اللغائية .. وتعلمي أن الكذب
خطيئتنا المفضلة ، لكنها لا تمنحك فرصة النجاة ..
لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم .. »

- « لن أكذب يا سيدي .. لن أكذب .. »
وبدأت تحكي قصتها ..

* * *

الإعتراف الخامس

من شفتى (جين هاملتون)

اجتماع في الغابة

وقا هنا لا تكلم عن المورمون .. إن عيوبى وأخطائى
- لتى سأحكى عنها - هى عيوبى وأخطائى أنا ولا نخل
للمورمون فى الأمر ..

فقط أردت أن أبين لك الجو للنفسى الذى تعيش فيه
بلدنا ، وكيف أن مجموعة من الفتيات يخفقن الملل إلى
حد القيام بما قمنا به .. وكيف أن الخطر الذى يتهددنا
كان عظيماً سواء مما قمنا به ، أو من أهل البلدة ..

متى حدث هذا ؟ حدث فى الصيف .. إحدى أمسيات
الصيف ..

* * *

كنت جالسة مع صديقتى (روزلين) و(كاتى)
و(ليا) .. إننا فى ذات سن المراهقة ، وكلنا فى
المدرسة الثانوية معاً .. كنا نشعر بالملل الشديد
وبحثنا عن أى شىء نفعله مما تفعله بنات الضواحي
الصغيرة المهدبات اللاتى تربين جيداً .. والمشكلة
هى أننا فعلنا كل شىء تقريباً وفعلناه مراراً ..

- ١ -

قالت (جين) بصوتها المرتجف :
- « ليس كل ما يلعب ذهباً ، وليس كل ما يطير
نسرًا .. »

* * *

أنا أعيش فى (يوتاه) .. والبلدة التى أعيش فيها
بلدة صغيرة قرب (سولت ليك سيتى) ، على
ضفاف نهر الأردن ..

بلدة من التى تكثر فيها القصص والأقاويل ، لأنه
ما من أحد يجد طريقة أفضل للتسلية ..

كانت أسرتى تدين بعقيدة (قديسو اليوم الآخر) التى
تنتمى إلى (جوزيف سميث) .. بعبارة أخرى نحن
من (المورمون) .. وهم طائفة دينية محافظة تعيش
بقواعد أقرب إلى القرن الماضى ، وباختصار كنا نحن
الفتيات الأمريكيات الوحيدات اللاتى لا يكلمن الفتيان ،
ويعدن للبيت قبل التاسعة مساءً ..

قلنا لها فى ملل :

- « كل جحش فى البلدة يعرف هذا .. »

قالت وعيناها تلمعان :

- « لاشكلا .. أنا لا أطلب منكن التذكر بل أطلب المشاركة .. الليلة يكتمل القمر ، وهناك فرصة لا بأس بها فى ساعات من الإثارة .. سنلتقى الليلة هناك .. منتصف الليل .. لتحضر كل واحدة منكن عباة سوداء ومكنمة !! »

- « حتى لو تحمست فكيف أغادر الدار ليلاً ؟ أنا لن أتمكن من الخروج بعد العاشرة مساءً يا (روزلين) .. أنت تعرفين هذا .. »

وقالت (ليا) شيئاً مماثلاً ..

هنا قالت (روزلين) فى مكر :

- « الأمر هين .. كلنا نعانى المشكلة ذاتها .. لكننا سنقتسل تحت جناح الظلام .. ماذا عن وسادة تحت الملاءة ؟ ماذا عن مغادرة البيت من الباب الخلفى ؟ »

كانت (روزلين) أقواتا شخصية وهى المحرك الدائم لهذه المجموعة ، وكان اقتراحها بسيطاً :

- « هل تعلمن يا بنات ما كان يحدث فى الغابة القريبة ؟ على ضفة النهر ؟ »

قلنا لها إتينا لنعلم .. من العسير أن تكون واحدة منا من العلم إلى درجة أن تعرف كل ما حدث فى غابة معينة .. هذه مبالغة لاشك فيها ..

قالت (روزلين) وهى تستمتع بإثارة فضولنا :

- « كانت الساحرات يجتمعن هناك فى الليالى المقمرة .. »

كنا نعرف هذا بالطبع .. كل البلدة تعرفه .. لكن هذا الكلام الفارغ كان يحدث منذ مائة عام .. ربما ساتين .. لا أحد يعبأ بهذا اليوم .. لو أنك عدت الأماكن التى حدثت فيها جريمة قتل أو الأماكن التى كانت فيها ساحرات ، فى المائة عام الماضية فلن تجد مكاناً تمشى فوقه ..

فكرنا قليلاً .. لا بأس .. من الممكن أن ننفذ هذا ..
لا توجد واحدة منا لا تستطيع المجيء إذا أرقت ، وللتصل
من الأمر لا يعنى إلا الخوف .. خوف من ماذا ؟ لاشيء
يخيف فى هذه الغلبة ولا فى بلدنا كلها .. ومعنى للتصل
هو الجبن والظهور بمظهر مضحك أمام الأخريات ..
لأسباب كهذه يفعل المراهقون أى شيء .. أى شيء ..

سألتها (كاتى) فى تهكم :

- « هل احضر معى قطة سوداء وقلب طفل ؟ »
 - « لو كان عندك شيء كهذا فلا تبخلى به علينا ! »
- وعدت لدارى .. كانت الأسرة بانتظارى للعشاء ..

بعد العشاء أعلن أبى أن على دخول الفراش أنا وأخى
وأختى .. والأعمار بالترتيب هى 17 - 11 - 7 .. ثلاثة
أطفال وهو عند قليل جداً بالنسبة للمورمون .. إنهم
يؤمنون بكثرة النسل ، كما أن الرجل يتزوج أكثر من
واحدة ، وأمى تعرف أن أبى سينزوج يوماً ما لكنها
لا تعترض ..

غرضى فى لطابق الثاى من البيت .. وعلى خلاف

كل غرف المراهقين ، ليست فيها صورة واحدة لأى
من المشاهير أو نجوم الغناء .. بالأحرى ليست فيها
أية صورة على الإطلاق ..

لكن فيها نافذة .. والنافذة تطل على المرج الخلفى ..
لقد استعملت هذا الطريق سراً مراراً .. والسبب كما
ستعرفون بعد قليل أننى شريرة .. نعم شريرة ..

لم تكن (روزلين) جادة حين تكلمت عن الوسادة
تحت الغطاء ، ولكنى فعلت هذا مراراً من قبل ،
والانطباع النهائى يوحى لمن يراه أننى نائمة
بعمق ..

وحين تأكدت من أن الأضواء قد أطفئت فى البيت
كله ، فتحت النافذة ، وعضضت على الكشاف الصغير
بأسنانى ، وغادرت الغرفة كاللصوص من النافذة ..
طبعاً لم أكن خالية الوفاض .. كانت معى عباءة
سوداء ، ومكنسة صغيرة علقها بحبل فى عنقى ..
وبعض الأشياء الأخرى ..

* * *

من القدام هناك عبر الأحرار؟ الذى لاوجه له
ولا اسم له ؟

إنه أنا أيتها الأخت (مرلين) .. أنا الأخت
(برسياليوس) .. هووووه ! هووووه !

كنا قد بدأنا نتجمع فى تلك الرقعة الخالية بين الأشجار ،
والتي غمرها ضوء القمر .. أربع فتيت فى أربع عبات
سوداء ، ومعنا المكاتب .. وقد جلبت معها (روزلين)
بعض الشموع والطبشور ورسمت نجمة خماسية على
الأرض ..

تعاليت للضحكات وصيحات المرح .. هاتحن أولاء نفل
نفس ماكنت للسلحرات يفعلنه منذ قرون .. وكان الحرق
أو الغرق مصيرهن .. أما نحن فلسوف نمرح قليلا
ثم نعود لديارنا ..

كنا قد أطلقنا على بعضنا أسماء جديرة بالساحرات ..
وكانت الأخت (برسياليوس) طبعا هي (روزلين)
وقالت لنا وهي توشك على فقدان وعيها من كثرة
الضحك العصبى :

- « والآن ماذا نقول ؟ »

- « المفترض أنك تعرفين هذه الأشياء .. »

- « أنا لا أعرف كيف كان الأمر يبدو .. »

قلت أنا وقد رسمت على وجهي الجد :

- « حسن .. سأتكلم أنا .. إننا هنا فى حضرة السلحرة
للبرى الأم (إيزابورا) .. إنها ترقنا وتحضر هذا الحفل
معنا .. ولسوف أتلو التعاويذ التي تحبها هي .. »

ثم أخرجت ورقة من ثيابي ، بها بعض العبارات بلغة
غامضة .. ربما كانت كلمات أشورية أو سريانية
أو فينيقية .. لا أحد يعرف .. لكنني رحمت أردها
وأمرت الفتيات أن يرددنها معي ..

رحن يرددن بأصوات رفيعة مبسوحة منغلطة ،
وهن يكتمن الضحكات ..

وهمست (ليا) وهي تمسك ضحكتها بصعوبة :

- « أنت مقنعة حقاً .. لقد بدأت أرتجف .. »

- « ششششششش ! »

كان هذا طبيعياً .. من الذى لا تمتلكه العصبية
والهواجس فى هذا الجو الشيطاني ؟
قلت لها فى ضيق :

- « أكره أن أفسد هذا الخيال .. لكنك تعرفين
مانعركه .. هذا الشيء طائر .. بومة فى الغلب .. ومن
الذى يلوم بومة على التحليق ليلاً فى غابة ؟ »

- « البومة لا تتركب مكنسة ! »

- « والساحرات اللاتي يطرن لاجود لهن .. كفى
بلاهة ودعونا نعد إلى ما بدأناه .. »

عدت أتلو التعاويذ من الورقة ، ورفعت رأسي إلى
صف الأشجار البعيد .. وابتسمت .. كان هناك غراب
أسود يقف فوق أحد الغصون يراقبنا .. أشرت لهن
إليه فهدأن قليلاً .. الآن نعرف سر ما حلق واتجه
خلف الأشجار ..

كانت هذه من (روزلين) .. وهكذا ساد الصمت
إلا من أصواتنا التي صارت خفيضة جداً .. وفجأة
صرخت (كاتي) فى هلع :

- « هل رأيتم ؟ وراء هذه الأشجار ؟ »

- « ماذا هنالك ؟ »

- « لقد رأيت جسماً .. جسماً آدمياً يركب مكنسة
يحلق من أعلى ليتوارى وراءها !! »

* * *

قلت لهن وأنا أمد يدي في الكيس الذي أحمله :
« الآن لا بد من اللتھام هذه الأثمياء .. قلوب
القطط ! »

صاحت (ليا) في ذھول :

« هل جنتت ؟ »

« لا تكونى سخيفة .. لا حاجة بى إلى أن أنكركن
كل دقيقة بأننا نتظاهر .. نـ .. تـ .. ظـ .. اـ .. هـ .. رـ ..
أية متعة تبقى لنا إنن ؟ هذه قطع من الهلام الأحمر
عديم المذاق .. »

ومنتت يدي لأول كلاً منهن قبضة من محتوى الكيس ..
فلمسكت كل واحدة بنصيبيها وراحت تلتهمه فى الظلام ..
سرئى هنا أن (روزلين) قوية للشخصية التى اعطت
لعب نور القائد صارت تطيغى فى غياب .. فهى لم
تضع كل هذه التفاصيل فى ذهنها حين اقترحت الفكرة ..
« وهذا شرب السحرات .. إيه مصنوع من الأعشاب
والصفلاخ وأجنحة الوطاويط ! »

وصيبت لكل منهن بعضه فى أكواب ورقية .. شرعن
بأكلن ويشربن وهن ينظرن لى فى دهشة .. وضحكت
(روزلين) حتى خرج ما تأكل من أنفها ، وقالت وهى
تسعل :

« ماكنت أحسب الأمر بهذا التعقيد .. متى أعددت
كل هذه التفاصيل ؟ »

« هذا سرى الخاص .. بالمناسبة هذا الشراب
مصنوع من الجزر مع الخيار .. إنه صحى .. »
« كانت السحرات يتحملن الكثير حقاً ! »

وحين انتهى الطعام رحنا نرقص لمدة نصف ساعة
حول الشموع والنجمة .. ولاحظنا أن الغراب ظل
واقفاً يرمقنا فى ثبات ..

هتفت (ليا) وهى تنظر إلى الأفق خلف الأشجار :
« الشيء الذى رأيت منذ قليل طار الآن على
مكنسته مبتعداً .. صدقن هذا أو لاتصدقنه .. »
« نحن لانصدقنه لكننا سننتظاهر بأننا نفعل .. »

قالت لى وهى تنظر إلى الغرفة غير المنسقة :

- « لم ترك منذ يومين .. »

- « كنت مشغولة فى القراءة .. إن الصيف يمر
بهبط هنا .. »

قالت لى فى حذر وهى تعقد كفيها على رديها :

- « ثمة أمور مهمة يجب أن نتكلم فيها الليلة ..
يجب أن نراك على أفراد فى الغابة حيث كنا .. »

- « لكن الليلة غير مقبرة .. فما أهمية اللقاء ؟ »

قالت بلهجة ذات مغزى :

- « أرجوك .. »

وهكذا فعلت كما طلبت منى .. لم يكن هناك اتفاق
على اللهو الليلة ، لكنى برغم هذا أخذت معى العبادة
للسوداء والمكنسة .. وسرعان ما قصدت الغابة بعد
ملئصف الليل ..

كانت الفتيات هناك .. وأدركت حين رأيتهن أن

كانت الساعة الآن الثالثة صباحاً .. حان وقت العودة
لديارنا والتظاهر بأننا نمنا ثماني ساعات متواصلة
بلاأحلام .. وقالت لى (روزلين) ونحن نخرج من الغابة :

- « لم تكن ليلة رديئة .. الفكرة فكرتى لكنك جعلتها
تبدو حقيقية .. وقد كانت أمسية مثيرة .. »

وقالت (كاتى) وهى تمسح العرق عن جبهتها :

- « سنكررها كثيراً .. أليس كذلك ؟ »

قلت لها إننى موافقة .. لكن يجب أن يخبرونى
بهذا كى أعد للأمر عدته .. ومن الأفضل أن نختار
الليالى التى يكتمل فيها القمر بديراً ..

وافترقنا شاعرات بالرضا والسرور ..

* * *

بعد يومين جاءت (روزلين) إلى دارنا ، وحيث
أسى ، ثم طلبت أن تلقانى .. فسمعت لها أسى بالصعود
إلى غرفتى .. كنت متمددة فى الفراش أقرأ بعض
الروايات حين دخلت صديقتى على ..

الأمر خطير .. هذه الوجوه لا تتجهم إلا لأمر جليل ..
هذه النظرات لا تتوهج إلا لسبب مقلق ..

دون سلام قالت لى (روزلين) بكلمات صارمة :

- « كيف غادرت البيت ؟ »

- « كما غادرته فى المرة السابقة .. عن طريق
النافذة فى حجرتى .. لماذا تسألين ؟ »

ابتسمت ونظرت إلى (كاتى) و(ليا) وقالت :

- « لدى شاهدتان استطاعا أن تراقبا غرفتك الليلية ،
وهما تزعمان - وضغطت على الكلمة الأخيرة - تزعمان
أنك طرت على المكينة التى تحملينها !! »

- « أه !! هل سنعود إلى هراء البنات هذا ؟ »

قالت (كاتى) وهى تنظر لى فى ثبات :

- « لم نشك فى شىء .. حتى عرفنا من نائب
الشريف هنا أن هناك مجنوناً يقتل القطط ! »

- « ما هذا المسخف ؟ »



تزعمان أنك طرت على المكينة التى تحملينها !!

- « لقد وجدوا أربع قطط مقتولة .. قطط سوداء !
والأدهى أن قلوبها قد نزعت نزعاً .. هذه القطط
كانت في صندوق قمامة قرب هذه الغاية .. والغريب
أن هذه ليست المرة الأولى التي تحدث فيها شناعة
كهذه ! »

وهنا تدخلت (ليا) في المحادثة وقالت في
توحش :

- « أما أنا فقد تقيت الشراب حين عدت لداري
لأكنى مشمزة منه .. وجدت في القمء أشياء غريبة
جداً .. وخطر لي هنا أن ما التهمناه في الظلام لم
يكن هلاماً أحمر !! »

- « أنتن مجنونات !! »

قالت (روزلين) وهي تحيط صديقتها بذراعيها :

- « لهذا طلبت من (ليا) و(كاتي) أن يراقبا حجرتك
الليلة .. وقد وجدنا للدليل القاطع على صحة شكوكنا ..
لاداعي للخداع يا (جين) .. أنت جعلتا نلتهم قلوب

قطط ونشرب شراباً من الضفادع والوطاويط ! أنت
فعلت هذا عمداً فلا تقولي إنه كان اندماجاً في الخيال ! »
هنا أتركت أنه لاجدوى من الاستمرار في الخداع ..
هاته الفتيات لسنن بلهوات .. ترجعت إلى الورا
وصحت بوحشية :

- « نعم .. أنتن شركتن في حلقة سحر حقيقية .. هل
تعرفن معنى وجود الغراب الأسود الذي وقف على
الشجرة يراقبنا ؟ اذهبن فافقرن عن الساحرات اللاسي
كن يجتمعن هنا لتعرفن معنى ظهور غراب أسود !! لقد
قبل التماسنا .. لقد جاء ليشاركنا الحفل ، وأنتن الآن
ساحرات حقيقيات أردتن هذا أو لم تردن ! وسوف
لجتمع هنا كلما أردت أنا .. لسوف نستمر في الشيء
ذاته وإلا كان انتقامه شنيعاً ! »

« هل تردن معرفة أكثر ؟ أنا أمارس الشيء ذاته منذ
ثلاث سنوت ! بدأت وحدي لكني كنت بحاجة إلى حمقات
يمارسنه معي .. وإذا بلبلهء (روزلين) تقترح الشيء
الذي كنت أتمناه ولا أجرؤ على التصريح به ..

« والآن أفتن ساحرات شريرات .. ولن تستطعن
التملص ! »

« أيتها الشيطانة ! »

ولم أدر كيف نهالت الفتيات علىّ ضربياً .. فسقطت
على الأرض .. نهلت ركلاً هذه المرة .. وكان جنونهن
قد جن بحيث لم يعد الكلام ذا جدوى ..
رأيت المقت المجنون في عيونهن ، وعرفت أنهن
سيقتلنني لامحالة ..

« لسوف تموتين كالكلب العقور !! »

« أيتها المخادعة !! »

لامفر .. من الواضح أنهن لن يتركنني إلا جثة
هامدة .. لأجد الكلمات التي تطردهن خلسة أنهن اكتسبن
بعض قوى السحر فلم يعد بوسعي إحراقهن ..

لامفر من الهرب .. تحاملت على نفسي وأبعدتهن
عني ، ورحت أركض وسط الأحرش .. الدم يسيل من
أنفي ، والأغصان تمزق ثيابي لكنني أركض .. أركض
والهث ..

فجأة مادت الأرض من تحت قدمي .. يبدو أنني
فقدت الوعي جوار شجرة غليظة عتيقة من الأشجار
التي وجدت هنا من قرون ..

ولما صحت ووجدت أنني هنا أمام سادة النجوم ..
أحاول أن أثبت لهم أنني أستحق الحياة ، وأن أحداً
من الموجودين هنا لا يجسر أن يزعم أنه كان أشر
منى ..

* * *

لما انتهت القصة وقفت الفتاة تلهث انفعالاً ثم
عادت إلى الوراء كأنما تنتظر الحكم عليها ..

تخرجت عشرات العيون من وجه (ساتجينيوس
الأسود) .. وراحت تركض كالبراغيث في كل أرجاء
القاعة .. وزحفت إحداها على حذائي فأجفلت ووثبت
إلى الوراء ..

قال د. (لوسيفر) وهو يتأمل أتامله الطويلة
الجميلة :

- « لا بأس .. هذا يروق لى .. ولعمري إن السحر
من أشر سرور الفاتين .. اعتدنا أن نحضر هذه
الاجتماعات في صورة قط أو غراب أسود .. أياماً
باسمة كحنت .. لم ينته السحرة من الأرض لكن
أساليبهم تبدلت كثيراً .. »

ثم نظر في عيني، وقال بثبات :

- « كاره أنت لكل ما لا تطيق سماعه ! »

- « نعم .. أكره السحر والسحرة وأشتمن منهم ،
هل هذا يريحك ؟ »

- « أنت بين منكر للسحر ومتهيب منه .. وهذا
كمن »

- « أريد الذهاب حالاً أو الموت حالاً !! »

كنت قد وصلت إلى نهاية تحملى .. وتذكرت
مشاعر الطفل في أول يوم من المدرسة : عاوز
أروح ! هذا هو كل ما يعيه من العالم .. لكنى كنت
أختلف عنه بالتأكيد .. فالمدارس - مهما ساءت -
لمست جانب النجوم .. كما أن المدرسين لا يشبهون
(سيجفريد الأمدى) جداً .. أنا في عالم آخر .. عالم
لم أخرج منه بمجرد أن أفتح الباب وأستقل أول سيارة
أهرة ..

ثم إن الطفل يبكى لأنه يريد العودة إلى أمه ، فبلى
من أعود أنا ؟؟

تُرى هل أعيش بعد هذه التجربة؟ هل
أحكيها يوماً ما؟ أم أن هذه هي نهاية ذكرياتي
وتجاربى؟

سمعت صراخاً عنيقاً وعويلاً من مكان ما
فتصلبت، لكن (لوسيفر) قال لى وهو يضع ساقاً
على ساق:

- « هذا مصاص دماء يحاول العبور إلى العالم
الخارجى .. هذا شيء مربع .. هناك بوابات سلسلة كالتي
جنت منها .. وهناك بوابات مخيفة كالتي رأيتها فى
(هالماجيو) تحتاج إلى قدرات شيطانية لاجتيازها،
ولعل أكفأ من يستطيعون عبورها (فلاذ الوالاشى) ..
ومن يجتازها من البشر يفقد عقله على الأرجح .. »

وبدأت الدماء تسيل من مكان ما .. وترتفع حتى
صارت بحرًا يوشك أن يصل إلى ركبتي ..

قال (سيجفريد الأميدى) فى برود:

- « قد هلك الفامفيري .. لم يتحمل .. »

وفى بحيرة الدماء راحت العيون التى تخرجت من
وجه (مسانجينوس) تسبح كالأسماك .. وتطفو
وتغوص كأنما وجدت أخيراً لحظات من المرح ..

قال (سيجفريد الأميدى):

- « لم يبق إلا اثنان .. فمن منهما يحكى قصته؟ »

قال (لوسيفر) وهو يربت على ركبتي بكفه للصلابة
للصارمة الباردة:

- « يبقى هذا معى حتى النهاية .. إنه ضيفى .. وأنا
به أسعد وله قلبى يطرب .. أما الآخرون فهم من أجله
سعداء .. أؤثر أن تتكلم المرأة .. »

تقدمت السيدة إلى الأمام وقالت وهى توجه كلامها
إلى (لوسيفر) بالذات:

- « أنا (إليزابيث كراوفورد) .. هل لى أن أحكى
قصتى؟ »

قال (سيجفريد الأמידى) بصوته الشجاع :

- « ابني المرء أيتها الفاتية .. وتعلمي أن الكذب
خطيئتنا المفضلة ، لكنها لا تمنحك فرصة النجاة ..
لا أحد يكذب على سادة جانب النجوم .. »

- « لن أكذب ياسيدي .. لن أكذب .. »

وبدأت تحكى قصتها ..

★ ★ ★

الإعتراف السادس
من شفتى (إيزابيث كراوفورد)
انتقام

ولهذا كنت مستعدة لعمل أى شىء لمن يؤذى
شعرة من رأسها ..

والبداية كانت عندما ذهبت إلى (لندن) لتعمل فى
تلك الشركة التى تقوم بتصميم الأزياء .. وكانت
مراسلتها معى تنشى بسعادتها البالغة .. هناك كانت
حياة جديدة مثيرة بالنسبة لفتاة فى مقتبل العمر ..
وجوه جديدة لامعة .. نقود جديدة لامعة .. مشاكل
جديدة لامعة ..

ثم ظهر (بيتر) وهو مدير تنفيذى بهذه الشركة ..
فيه كل ما يجذب فتاة لاتعرف شيئاً عن الحياة ، وفيه
كل ما ينفر أمأً ويجعلها تتوجس خيفة ..

كانت خطابتك (غادة) تأتى من (لندن) تحكى لى
كل شىء عن (بيتر) هذا .. كم هو مهذب .. كم هو
جنتلمان .. كم هو رقيق .. كم هو ذكى .. كم هو
حبوب .. لقد عاهدتها على الزواج وقدم لها خاتماً
ماسياً جميلاً ..

قالت (إليزابيث كراوفورد) :

- « الشر قاس .. لكن الجزاء قد يكون أكثر قسوة .. »
كنت أهيمن حباً بابنتى (غادة) ..

كانت رقيقة لطيفة لم تترب إلا على أجمل القيم فى
الحياة وأنظفها .. وكان من يراها يشعر كأنما خلقت
من فورها من فرط نضارتها وظهرها .. وكنت ثرية
فلم أكف عن جعلها تشعر بأنها ملفوفة فى المخمل
بعيداً عن مخلب المجتمع الشرير ..

كنت أهيمن حباً بابنتى (غادة) ..

وكانت علاقتنا علاقة صديقتين تتجاوز بكثير علاقة
أم بابنتها .. كانت تثق بى ، وتعرف أننى أستطيع
عمل أى شىء لها بعد وفاة أبيها .. وتعرف أننى لن
أتركها تتألم ..

وأنا يا سادة امرأة واسعة الخبرة لم يتهمنى أحد
بالحمق قط .. لقد أدركت على الفور الحقيقة التي
لا شك فيها : هذا الفتى يخدعها .. وفي الغالب هو
شيطان .. لا توجد ملائكة على الأرض ، خاصة لو كنت
ملائكة تجيد استعمال الحاسب الآلى ، وتعرف أفضل
المطاعم فى (وست إنڊ) ..

كنت كذلك أعرف جيداً شعار الشاب الإنجليزي مع
الفتيات :

Find them .. Feed them .. Love them.. Leave them..

أعثر عليهن .. أدهن للعشاء .. أقم علاقة
معهن .. تخل عنهن ..

شعار لا بد أن (بيتر) يعرفه وينفذه حرفياً .. أعرف
هذا .. أوقن به .. وإلا فلماذا أشعر بهذا السكين
ينفوس فى قلبى ؟ إن (غادة) ابنتى وأنا أعرف أن
قلبها هو قلبى ..

طبعاً انتهت العلاقة بأن تركها (بيتر) .. لم

يتزوجا .. لم يحاول حتى تفسير موقفه .. وبالطبع
كما لا بد أنكم خمنت ان تحرت (غادة) بأن ابتلعت طبة
كاملة من المنوم .. إنها كانت طفلة هشة لا تصلح لهذا
العالم ، وقد تداعت نفسيتها على الفور عند الصدام
الأول .. بينما يمكن لأية واحدة من صاحباتها ..
لو حدث لها نفس الشيء .. أن تحول الموضوع إلى
دعابة تحكيها على العشاء لصديقاتها .. أنا اخطأت
فى تربيتها .. لم أجعل منها قط فتاة إنجليزية من
العنيدات الصارمات اللاتى يملأن الطرقات ليلاً
عائدات من العمل .. الفتيات الخشنات اللاتى لم يعد
شئ قادراً على إدهاشهن أو إثارة حزنهن ..

وهكذا رحلت (غادة) .. فلم تترك لى إلا رسالة
قصيرة : سامحىنى يا أمام ..

وذهبت إلى لندن لأرى جثتها فى المشرحة .. كان
هذا جهداً عصبياً ، حتى إننى تحملت على نراع ضابط
للشرطة الذى أخذنى إلى هناك ، وهزرت رأسى ، ثم
سقطت فاقدة الرشد على الفور ..

ومن تلك اللحظة عرفت أنني لن أعود أبداً كما
كنت .. عرفت أنني سأنتقم ..

ولكن كيف ؟ لمست من الطراز الذي يذهب إلى
(بيتر) هذا في مكتبه لأفرغ المسدس في رأسه ..
لا .. لن أفعل .. هو لا يستحق هذه الراحة السريعة ..

وهكذا يمكنكم الفهم .. لماذا استغرقت أكثر من
عام حتى رسمت خطتي جيداً .. كانت خطة محكمة
لكنها قابلة للفشل لمجرد خطأ صغير ..

* * *

- ٢ -

كان البيت الذي استأجرته في ضواحي (لندن)
منزلاً تاماً .. وقد اتدهش السمسار الذي طلبت منه
البيت حين عرف أنني وحدي .. قلت له إنني مجرد
عجوز تطوائية أخرى لاتعبأ بالجيران ..

قال لي في كياسة :

- « حسن ياسيدتي .. أكره أن أقصد صفقة على
نفسى ، لكن الضمير يحتم على أن أقول عن هذا البيت
هو الاعزال بذاته .. لأحد يمر هنا .. لن ينقذك
سوى الهاتف لو حدثت متاعب ما والهاتف يتلف كأي
شيء آخر .. »

قلت له في رضا :

- « أنا أعرف تماماً ماتعنيه لكننى اتخذت
قرارى .. »

وهكذا صار البيت لى بثمن زهيد .. كانت ألواح الخشب محطمة وكذا زجاج النوافذ، وكان الأثاث قليلاً ورثاً لكن الإقامة هنا لم تكن ضمن خططى ..

بعد هذا جاء دور إحصار (بيتر) إلى هنا .. لم يكن هذا سهلاً لأن الرجل مشغول، وما من قوة تحمله على مغادرة (لندن) والمجئء إلى هنا إلا القوة! نعم .. لا بد من إرغامه على هذا .. وقد سألت أحد المخبرين الخاصين عن بلطجية ممن يأخذون المال، ولا يسألون أسئلة .. وقد أوصاتى بثنتين من المهاجرين هنا فى (لندن)، وكنا حذرين لا يتعاملان إلا بالخطبات .. وكان لهما رقم هاتف سرى لا يعرفه إلا من يعرف شخصاً يعرف أحد عملائهما ..

طبعاً هم يتقاضون نصف المبلغ مقدماً، ويقومون بالمهمة ويأخذون النصف الآخر عند إتمامها .. أخبرتهما بصفات الرجل، فضربوا لى موعداً عند المساء قرب الضاحية التى أقيم فيها ..

وفى الموعد المحدد كنا هناك، وكنت ألبس منظرًا أسود وإشارياً على سبيل التتمويه .. وقد سألتى أولاً عن المال .. طبعاً لم أكن لأجروء على التلاعب معهما لأن هؤلاء القوم نوع من الوحوش المفترسة التى لا يمكن للتعامل معها إلا بمنتهى الحذر .. لم يظهرها دهشة لأن سيدة عجوزاً مثلى تهتم بهذه الأمور .. فقط فتحا لى حقيبة السيارة الخلفية وأخرجوا الجسد المكتم المقيد الغائب عن الوعى ..

- « خذى الحذرى يا سيدة .. سيفيق خلال نصف ساعة .. أين نضعه ؟ »

كان مخدراً، وقد طلبت منهما أن يضعاه فى حقيبة سيارتى الخلفية، ثم ودعتهما وأدرت محرك سيارتى مبتعدة .. وعند أول منعطف توقفت .. انتزعت الإيشارب والمنظار، ودرت حول السيارة لأتزع اللاصق الذى يحمل الأرقام المزيفة .. نعم .. هذان وغدان قد يعمدان إلى الابتزاز .. أو - إن كانا شريفين - يقعان فى يد الشرطة ويثرثران عن السيدة التى اختطفت مديراً تنفيذياً شاباً ..

واتجهت إلى البيت الجديد وقلبي يخفق طرباً ..

* * *

كان الوغد وسيماً بالفعل ، لكنها تلك الوسامة التي
تكمل على قسوة و نرجسية هائلة .. صاحب هذا الوجه
لا يمكن أن يُحب إبه فقط يجب أن يُحب .. لكن من
قال إن (غادة) يمكن أن تلاحظ هذه الأمور ؟ ماذا
تعرفه هذه الطفلة عن الحياة ؟

إبه وغد .. بالإضافة إلى هذا هو ثقيل كالخراتيت ..
وقد عانيت أشد المعاناة وأنا أجره إلى الطابق
السفلى .. ثم وأنا أدخرجه على درجات السلم ، ثم
وأنا أمدده على أرض القبو ، وأحكم ربط القيد
على كاحله .. ثم فككت قيوده ونزعت كمامته ..

الآن بدأ يفيق ..

كنت خائفة من نقطة واحدة هي هل تتحمل السلسلة ؟
لكني كنت أعرف أنني أحكمت تثبيتها وأن الحداد
الذي صنعها لي حاول كثيراً أن يجذب السلسلة من
مكانها لكنه فشل ..

ونظرت حولى .. كنت قد فتشت جيوبه بعناية فلم
أجد شيئاً يمكن أن يستعمله لفتح السلسلة ولا القيد ..
لم يكن حوله شيء يصلح .. القبو فارغ تماماً إلا من
وعاء الطعام ووعاء الماء ، والدلو الصغير الصالح
لقضاء الحاجة ..

بدأ يفيق .. ولم يكن من الطراز التقليدي الذي
يقول : أين أنا ؟ بل نهض وفرك عينيه وتحسس
القيد في كاحله .. نهض مترنحاً ومشى نحوى ،
لكن السلسلة انتهت .. وكنت أنا على بعد متر من
آخر نطاق لها ..

قال بلهجة عملية :

- « حسن يا سيدتى .. لقد انتهى المزاح .. فكى
قيدي هذا .. »

قلت له فى برود وأنا أجلس على مقعد قديم :

- « يؤسفنى أنك لا تفهم ما يدور هنا !! »

صاح فى ضيق وهو يحاول فك السلسلة :

من أن يحسن للتصويب الأخير للفعال .. وسقط الوعاء
بقربى وتناثر ما كان فيه من طعام جاف ..

قلت له فى ضيق وأنا أجمع الطعام المتناثر :
- « كف عن الحماقة .. لو حدث هذا وأنا لست هنا
لقضيت جوعاً .. »

ثم تناولت العصا الخشبية ودفعت بها إزاء الطعام
إلى متناول يده ..

هنا انقض كالفهد على العصا وحاول التزاعها لكنه
صرخ .. وفتح كفيه فإذا بالدم يسيل منهما فى غزارة ..
إن الأحمق لم ير كل المسامير التى غرستها فى العصا
على طولها بحيث يبرز طرفها المدبب .. لم أضيع كل
الوقت الذى أضعته سدى ..

قلت له وأنا أنهياً للرحيل :
- « والآن وداعاً .. »

صاح من جديد :

- « إلى أين أيتها المخبولة ؟ هلا شرحت لى
ما يدور ؟ »

- « لو كنت تريدن فدية فقد أخطأت الطريق .. »
قلت فى برود :

- « أنا لا أريد فدية .. بل لا أريد شيئاً على الإطلاق .. »
ثم أشرت إلى وعاء الطعام ، ووعاء الماء وقلت له :

- « أنت حر الحركة إلى حد ما .. لهذا يمكنك أن
تأكل وتشرب كما تريد .. والآن وداعاً ! »

- « ماذا تريدن منى أيتها المخبولة ؟ »

- « أريدك أن تموت طبعاً .. حسب هذا مفهوماً .. »

صرخ بأعلى صوته طالباً الغوث .. لكنى وقفت
أبتسم .. نصف ساعة كاملة وهو يصرخ حتى تلاشى
صوته تماماً .. فقلت له :

- « لو كنت تفكر قليلاً لعرفت أنه لو كان بوسع أحد
سماحك هنا لقت بتكميمك .. »

هنا وثب إلى إزاء الطعام ، ورفع يديه وهوى به
فى اتجاهى .. كان تصويماً متقناً لكن السلسلة منعه

لكن متع الحياة لا تكتمل ..

مر عام على ، وكنت في (تركيا) أطلع بعض
الجراند البريطانية القادمة من الوطن ، فاستوقفت
لظراتي مقالة عن الجرائم التي فشل رجال
(سكوتلانديارد) في استكشافها ..

كانت هناك حادثة اختفاء غامضة .. شاب من
شركة لتصميم الأرياء اسمه (بيتر أنرسون) .. هذا
الفتى اختفى منذ عام تقريباً وكأنما تبخر ، ومن
الغريب أنه بلا أعداء على الإطلاق ، وزوجته وطفله
الآن لا يعرفان أين هو ولا إن كان حياً أم مات ..

زوجته وطفله ؟ (بيتر) الذي خدع (غادة) لم
يكن متزوجاً ..

كان اسمه - الذي لا أنساه - (بيتر هايمان) ..
ما معنى هذا ؟

وهنا سقطت الجريدة من يدي ..

القصة تتضح الآن .. لقد أخطأ البلطجيان اللذان

كان من الممكن أن أشرح له ، لكنني آثرت أن أتركه
لعذاب عدم الفهم .. عذاب المحكوم عليه ولا يدرى
ماذا آتت له ..

وأغلقت البيت بغاية ، واتجهت إلى المطار .. ومن
هناك طلبت المصرف ، وتأكدت من أن أقساط الضرائب
على البيت ستدفع باستمرار طويلة سفرى ..

كنت ذاهبة في رحلة طويلة إلى مصر وباقي بلدان
الشرق الأوسط ..

* * *

لن يلبث أن يكتشف أنني لن أعود ..

لن يلبث أن يكتشف أن الصراخ لا جدوى منه ..

لن يلبث أن يكتشف أن الطعام والماء لن يكفياها
إلا شهراً لو اقتصد ..

سيموت من الذعر شهراً ، ثم يموت من الجوع
والظمأ بعد هذا .. كنت راضية عن نفسي ، وللمرة
الأولى شعرت بلذة منذ ماتت (غادة) ..

ولم أعرف أن هذه الهاوية كانت ثغرة مفتوحة
وجاهزة للعبور إلى جانب النجوم الرهيب ..
لم أعرف هذا إلا الآن وأنا أقف أمام هذه
المحكمة الرهيبة أحاول أن أنقذ عنقي ..

* * *

قال (لوسيفر) بعد سماع القصة :

- « هذه قصة أم مطعونة .. لا أرى فيها من الشر
الكثير .. لأن الانتقام يمكن فهمه إلى حد ما .. »
تراجعت المرأة إلى الوراء ، وقالت في ثبات :
- « لست راغبة في خلودكم هذا على كل حال .. »
في ثبات مماثل قال دون أن ينظر لها :

- « ولن تتاليه .. والآن يجيء دور الدكتور
(إسماعيل) .. »

ثم نظر لي ونظر إلى (فلاك الوالاشي) الضخم
للكلبوس ، وقال في تودة :

- « من المحبب للنفس أن تعلم أن هذا الفتى كان سبب
لمثل (فلاك الوالاشي) - هو الذي يمشى في الظلام - في

استأجرتهما الشخص المطلوب .. خطفا أول (بيتر)
في شركة الأرياء وجلباه لي .. ولم تكن معه أوراق ،
ولم أترك له أنا فرصة الشرح .. لو كنت حكيت له
القصة وقتها فلربما عرفت أنه ليس هو ..

عام قد مضى ! يا للهول ! عام قد مر على رجل
بريء سجين بلا طعام ولا شراب ..

عام قد مضى وكنت أنا السبب ..

بينما الوغد الحقيقي يمرح الآن ويخدع فتاة أخرى
في مكان آخر ..

* * *

أصابني المرض بضعة أيام ، ثم قررت أن أنهى
زيارتي لتركيا وأعود إلى الوطن .. يجب أن أنفذ
انتقامي ، ثم أسلم نفسي للشرطة ، وأتلقى عقابي
الذي أنا جديرة به ..

لكن حوائث السيارات تقع في تركيا مثل أي بلد آخر ،
وقد انقلبت بس السيارة على الطريق ، وسقطت في
هاوية على جانب الجبل لأنزف دما كثيرا جدا ..

لخترق الثغرة إلى (إفرونوس) التي كانت (هلمجيو) ..
وإننى لأعلم أن الانتقام مشتهاك يا (فلاد) .. لكنى
أطلب منك التريث حتى نسمع قصته .. »

أطلق (فلاد) عواء مريغاً من فمه ، مما جعل
جدران القاعة التي لا أراها تترجرج ، وسرنى أن
أعرف أننى المقصود بالعواء هذه المرة .. هذا
شخص لن يجدى معه التفاهم بالعقل ، أو أن أزوره
مع كبار أسرتى متحدثاً عن أن له (حق عرب) ،
أو أن أحمل له الكفن على يدى ..

قال لى (لوسيفر) باسمًا :

هلم احك لنا شرورك يا دكتور (إسماعيل) .. »
قال (سيجفريد الأمبىدى) بصوته الجشع :

- « ابدأ السرد أيها الفتى .. وتعلم أن الكذب خطيئتنا
المفضلة ، لكنها لا تمنحك فرصة التجااة .. لأحد
يكذب على سادة جانب النجوم .. »

- « أنا لم أعتد الكذب أصلاً .. »

وبدأت أحكى قصتى ..

* * *

الإعتراف السابع

من شفتى (رفعت إسماعيل)

الجريمة الكاملة

قلت لهم :

- « الشر هو الشر .. والجريمة هي الجريمة .. »

* * *

برغم أن الكثيرين يعتبروننى ملاكاً فإتنى كنت وغداً
نجح فى ألا يبدو كذلك ..

فى سن السابعة اعتدت أن أخدع زوجة خالى ..
كأنت تعد لى الحمام ، وتطلب منى أن أستحم بنفسى ..
ولم يكن لديها سخان فى هذا الزمن البعيد لذا كاتت
تسخن الماء فى إناء كبير ، وعلى أن آخذ الماء منه
بالكوز ، ثم أخلطه ببعض الماء البارد من الصنبور ،
وأصبه على جسدى ..

ولما لم تكن راغباً فى الاستحمام فى هذا الجو البارد ،
اعتكنت أن أسكب الماء الساخن بالكوز فى البالوعة ،
ثم أبطل شعرى بمياه الصنبور ، وأخرج من الحمام
لاهنأ أرتجف وأقول لها إتنى استحممت .. صحيح
أنها تلاحظ الغبار على أننى والحبر على كفى ، لكنها
تبرر ذلك بئنى لأجيد الاستحمام جيداً كأى طفل آخر ..

هذا نوع من الجرائم الكاملة .. الجرائم التى
يستحيل إثباتها ..

فى نفس الفترة اعتدت أن أتسلل للمطبخ بعد
لوم الجميع ، لأتسلق النعلية العتيقة هناك ، وأفتح
مرطبان المربى ، وأخذ ملعقتين كبيرتين أدسهما
فى فمى ، ثم أعود إلى الفراش متظاهراً بأن شينا
لم يحدث ..

وحين لاحظت زوجة خالى أن المرطبان ينفد بسرعة
اتهمت ابن خالى (عماد) بأنه يتسلل ليلاً إلى هناك ..
هذه جريمة أخرى لم يستطع أحد إثباتها ..
إن هناك جرائم كاملة كثيرة تحدث من حولنا لكن
أحدنا لا يعرف هذا ..

وفى سن العاشرة

.. كفى !

كأنت هذه من (لوسيفر) الذى لم يعد يتحمل ميل
الاعترافات الرهيبة هذا ..

* * *

قال د. (لوسيفر) فى ضيق :

- « كنت أعرف ما ستقوله .. الهراء هو ما نقوله ..
وأرى أننا نضيع وقتنا معك هاهنا .. »

قلت له فى أمل :

- « إن حن وقت قتلى؟ أريد الانتهاء من هذا كله .. »

نظر (لوسيفر) فى اشمنزاز إلى الستة الواقفين
ينتظرون الحكم النهائى عليهم ، وقال لـ (سيجفريد
الأميدى) بلهجة لا تقبل المناقشة :

- « هؤلاء استحقوا ما يحدث لهم .. هم حق مشروع
لـ (روكيان الأماسى) ! فليظفر بهم ! »

تصليح الجميع فى هلع .. ركعت الفتاة الفرنسية باكياً
على ركبتيها وهتفت :

- « أيها السيد .. أنت عرفت أنني كنت أشتر
الأشرار .. »

ولطمت (جين) خديها صائحة :

- « أنا ساحرة .. ألا تفهم معنى هذا ؟ »

وصاح النازى المتقاعد وهو يضرب صدره
بقبضته :

- « أنا حولت البشر إلى مسوخ ! أليس لهذا ثمن
فى عالم البشر هذا ؟ »

وقال الروماتى مذهولاً :

- « والدببة؟ وكل من التهمتهم؟ أنا السبب فى
جلون (كاليجولا) .. »

بينما قال الفتى الإنجليزى (جون يارتريدج) :

- « لا تغل إنك اخترت حكايات هذه الفزاعة الصلحاء
التي لا تملك قصصاً أشتر من سرقة المربى .. أنت وعدتنا
أيها السيد أن أكثرنا شراً ينجو .. »

مبتسماً فى غموض قال (لوسيفر) وهو ينهض
من مكانه وينظر لساعته الذهبية :

- « فى جانب النجوم أنتم .. أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. »

- « ألا تصدقوا الوعود .. ليكن هذا درسكم الأخير
في جانب النجوم .. الكذب هنا هو القاتون الأول ..
والقاتون الثاني أن القتل هو الابن الشرعى للسام ..
وأنا لم أعد أطيقكم .. »

وعلى الفور نزل (روكيان الأماسى) من مكانه
الشامخ .. كان ارتفاع قامته لا يقل عن ثلاثة أمتار ..
والوجوه التى تلتحم فى كل شبر من جسده تتلوى فى
مزاج من الولع والألم والتوحش والنشوة .. ذيل
الثعبان العملاق المتلوى من مؤخرته يضرب الأرض
مراراً .. ومن فمه خرج لسان ثلاثى الفروع يبحث
عن فريسة ..

كان هناك الكثير من الصراخ ، بينما هذا الغول
يفترس الضحايا بلا ترفق ولا آداب مقدة .. كما أنه
- للأسف - لم يكن ممن يلتهمون الطعام بسرعة ..
كان بطيئاً كالعدالة ..

* * *

- « أما الآخرون فسوف يصيرون جزءاً من جسد
(روكيان الأماسى) .. وهى نهاية أفضل منها الموت
بأنياب ألف ذنب .. »

* * *

قطرات دم انتشرت على ثيابى ووجهى فأدرت
لهرى للمشهد الرهيب ، وأنا أرتجف ..
قال (لوسيفر) وهو لا ينظر للوراء :

- « لقد متوا لكن أجسادهم صارت جزءاً من كيان
(روكيان الأماسى) .. لا يد أنه التهم ألف شخص كى
يصنع جسده .. هم بأشخاصهم متوا وفروا من جانب
النجوم ، لكن مكاتهم ينتظرهم فى جهنم .. »

ومن مكان مادوى صوت (فلك الوالاشى) يتلمظ :
- « إلى بهذا التفانى كى أمزق أشلاءه ألف قطعة ..
ولسوف تنعم بها كلابى ذات الرعوس المملة ا »

صمت (لوسيفر) قليلاً ثم قال دون أن ينظر لأحد :

- « بالعكس أى (فلاذ الوالاشى) .. الفاتى استحق
حريته واستحق أن يغزو من سادة جانب النجوم ..
إنه منكم ومنا ! »

يا نهار اسود ! عم يتكلم هذا الرجل ؟ ماذا يريد
بالضبط ؟ هل يريد القول إننى أنا الفائز فى هذه
المسابقة ؟ كيف ؟ لكنه لا يمزح ، ولم تهتز عضلة
فى وجهه توحي بالمزاح أو الخداع ..

لما رأى دهشتى قلل بصوت الببر الشبعان الراضى
عن الحياة :

- « حقاً أشتر الموجودين أنت .. كلهم اعترف بجرمه
وعرفه بينما التزمت أنت للصمت .. لعبت دور الطاهر
الذى لم يقترف إثماً أدهى من خطايا الأطفال ! وما أطفه
خطايا الأطفال ! الآخرون عن لدم تكلموا .. عن السحر
والقتل تكلموا .. بينما عن المربى تكلمت أنت .. والأدهى
أنك تصدق نفسك .. قد قلت لك أنفاً : من أخطر الأمور
ألا تعرف أنك .. أن يملأ الكبر نفسك فتتشدى : أنا لم
أقترف إثماً .. إن فى حياتك أثماً أنت أبرى بها منى ..

العميان لا يرون الشمس لكنهم يدركونها .. وأنت لست
كلمياً ولا غيبياً .. فقط أنت مغرور يخدع نفسه ..
ولعمري هذا هو الشر الذى يروق لى .. »

ثم نظر إلى سادة جانب النجوم وهتف :

- « إن الدكتور (رفعت) سيبقى معنا ! »

صحت أنا وكل خلية فى جسدى ترتجف :

- « هذا لن يكون ! اقتلنى الآن فوراً ! هليتمسل الأخ (روكيان)
بالتهاى إذا لم يضايقه نحولى ! »

كأنما كان يعرف أننى سأقول هذا ، قال (لوسيفر)
وهو يعود للجلوس فى الفراغ :

- « كما فى كل لقاء لنا أتركك لحالك .. أتركك وأنا
فأدر على ألا أتركك .. أنت حر تمضى أنى أردت فلن
يجسر أحد على منعتك .. لقد هكّلت كلمتى ولم يوجد فى
جانب النجوم من لا يطيع كلمة د. (لوسيفر) .. لكنى
إذا أتركك أوقن أننى فى أحشائك منحتك نكرى لن

- « هل ستتركنى وشائى ؟ »

- « بالطبع لا .. فأر وقط هما أنت وأنا .. فلن
ينجيك منى إلا القبر .. لفرار من د. (لوسيفر) لا يكون
إلا لأسفل أو لأعلى ! حافظ على نفسك من أجل لقائنا
التالى ! »

- « سأحاول لكنى - كالعادة - لا أعدك بشيء ! »

* * *

وحين فتحت عيني كنت فى سيارتى ، وكنت أرى
الآن الوادى الذى أغرقته مياه الأمطار ليلاً ، يستحم
فى نور النهار الوردى البكر ..

هل كان هذا حلمًا ؟ لا أظن .. ما زال إصبعى
يؤلمنى حيث جرحته بالديبوس .. وما زالت الكدمات
على ساعدى من جراء قبضات الحراس القوية ..

والبيت المجهول ؟ لم يعد هناك .. هذا طبيعى ..
لن يتركوه لى كى أجرب العبور من جديد أو أحضر

تساها ماحييت .. ذكرى الخوف .. الهلع .. الإشفاق ..
الوجل .. ذكرى كل هذا الشر الذى قابلته فى مكان
واحد .. لسوف يطاردك فى كل حلم ، ووراء كل
منعطف ، وفى كل قدوم ليل .. لسوف تمضى حياتك
تتذكر (فلاذ الوالاشى) وتتساءل متى يجيء ليبتقم
منى ؟ ومع الخوف ألم أكثر إيلانًا : الخجل ..
لا تحسب أنك الملاك الذى حسبته أنت ! »

ثم هتف منادياً الحراس :

- « أعيده إلى حيث كان !! »

ولم أدر إلا والحراس مقطوعو الرأس يحيطون بى
ويحملوننى حملاً خارج القاعة التى لا جدران لها ..

ومن جديد صحت وهم يحملوننى :

- د. (لوسيفر) .. من أنت حقًا ؟ »

اعتدل فى جلسته وقال فى مكر :

- « ما أحسبك إلا تعرف لكنك تخشى أن تعترف
بانك تعرف .. عساك تظفر بالنوم ليلة أخرى .. »

من يجرب .. هناك ثغرة موجودة هنا بالتأكيد
لكنهم أحسنوا إخفاءها ..

أدركت محرك السيارة بعقل مخدر .. إنه يدور ..
لا بد أن نوم الليل قد أفاد المحرك كثيرًا ..

فقط أدعوا الله ألا يتسبب ذهني الملبد الضبابي
في حادث أليم .. لا أريد أن أغانر جانب النجوم إلى
المشرفة مباشرة .. لا بد من وقت أتأمل فيه وأتذكر
ما حدث بالضبط ..

« كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » ..
تعلمت هذا منذ نعومة أظفاري ، وما كنت بحاجة إلى
كل غيلان جانب النجوم كي أعرفه ..

لكني كنت بحاجة إليهم كي أتذكره !

إن الغرور يتسلل إلى قلب المرء - كما يتسلل الحقد
والتسليان والكوليسيتيرول - دون أن يدرك هذا ..
ولو سألت ألف إنسان عن عيوبه ، لقال لك : عيوبى
أنتى أشق بالناس أكثر من اللازم ، أو أنتى صريح
أكثر من اللازم .. الخ ..

وتتساءل : من أين يجيء اللصوص والقتلة
والزناة والمرتشون إذن ؟

لا يتساوى الغرور مع كل ما سمعت فى جانب
النجوم من فظائع ، لكن د. (لوسيفر) - وهو يعرف
ما يقول - وجد أننى أجدر هؤلاء البؤساء بالبقاء مع
سادة جانب النجوم !

لا بد أنه كان يمزح .. لا بد أنه كان ينتقم .. لا بد
أنه كان يعابثنى أو يلقتنى درسًا قاسيًا ..

.....

وربما كان يعنى ما يقول ..

وأخذت شهيقًا عميقًا وأنا أرمق الطريق الراكض
أمامى ، وقد بدأت مدينة (...) تلوح من بعيد بعد
ما طالت رحلتى إليها إلى هذا الحد ..

ربما كان على أن أعرف نفسى أكثر ..

كانت هذه رحلتى إلى جانب النجوم ..

لقد نجوت من المعركة ، لكنى لم أنج من الحرب ..

وكانت هناك حلقات رعب أخرى سمعت وخبرت

فيها عوالم أخرى من الجانب المظلم من القمر ، كما

يقول د. (لوسيفر) فى أحد تعبيراته الشعرية التى

يحبها كثيراً .. عوالم أعرف أنها موجودة لكنى لم

أعرف أية تفاصيل عنها إلا حين ارتدتها ..

ولكن هذه حلقات أخرى .

* * *

د. رفعت إسماعيل

القاهرة